
فادي عزام
رحلة إلى
قبور ثلاثة شعراء
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل

رحلة
إلى قبور ثلاثة شعراء

فادي عزّام

رحلة
إلى قبور ثلاثة شعراء

أرثر رامبو ـ فرانز كافكا ـ فيرناندو بيْسوّا

برفقة رياض الصالح الحسين

Jadawel جداول

الكتاب: **رحلة إلى قبور ثلاثة شعراء**
المؤلف: **فادي عزّام**

جداول
للنشر والترجمة والتوزيع
رأس بيروت - شارع كراكاس - بناية البركة - الطابق الأول
هاتف: 00961 1 746638 - فاكس: 00961 1 746637
ص.ب: 5558 - 13 شوران - بيروت - لبنان
e-mail: d.jadawel@gmail.com
www.jadawel.net

الطبعة الأولى
تموز/يوليو 2016
ISBN 978-614-418- 326-7

طبع في لبنان

Caracas Str. - Al-Barakah Bldg.
P.O.Box: 5558-13 Shouran
Beirut - Lebanon
First Published 2016 Beirut

تصميم الغلاف : تمّام عزّام

المحتويات

كتاب في الترحل برفقةِ شعراءَ ميتين، هنا الرِّحلة التي جعلتني أجس الشعر وأتعرَّف على روحِ المدنِ وأعيشُ حريتي وسفري، وأحتفلُ بالقراءةِ كفعلِ حياة.

فادي عزام

بين يديك أيُّها العالم:

النافذة مشرعة وأنا وحيد

(من يأتي إلى من)

الأضواء ساطعة وأنا معتم

(من يضيئني من)

السفر... السفر... السفر...

هو ما أريد

الحريَّة... الحريَّة... الحريَّة

هي ما أطلب

رياض صالح الحسين.

الإهداء

إلى روحِ الشاعرِ السوري
رياض الصالح الحسين.

أنْ تقرأَ كاتبًا لا يعني مجردَ أنْ تأخذَ فكرةً عمّا يقولُهُ، بلْ أنْ ترحلَ معَهُ وتسافرَ برفقتِهِ.

أندريه غيد

السفر طويل لولا الوصول.

غوتيه

المسافر الجيد ليس لديه خطط محددة ولا يعتزم الوصول.

لاوتسي

توطئة

قرأت رياض الصالح الحسين باكرًا جدًا. في السادسة عشرة على الأغلب، يومها كنت تاركًا المدرسة، لا عمل لي سوى التّسكعِ والقراءة والحلم.

كان سلسًا، منسابًا، سهل الحفظ، وأذكر أنني من دون أيَّ جهد حفظت مقطعًا من نصوصه، بتُّ أردده في كل مناسبة ممكنة :

ها أنذا أحلم بشيء واحد أو أكثر قليلًا

أن تصير الكلمة خبزًا

أو عنبًا

طائرًا أو سريرًا

وأن ألف ذراعي اليسرى حول كتفك، واليمنى حول كتف العالم

وأقول للقمر صوّرنا!

كانت فاتحة من الدهشة، إذن يمكن للشعر أن يخلق صورًا أليفة، من أقرب المفردات اليومية والمعاشة، يحيلها إلى مرتبة أعلى بالحميمية والخصوصية. كثيف وخفيف، يمسُّ مباشرة الروح، شيء مختلف عما اعتدناه في المدارس، والبؤرِ التعليمية التي تمسخ الذائقةَ والعقل والمخيلةَ.

خيرًا فعلت أن تركت المدرسة، لم أعد أطيق البزة العسكرية الإلزامية في ذلك الوقت، ولا المنهاج الكارثي الذي لم أستطع حشو أي شيء منه في رأسي المراهق.

كانت الكآبة رفيقة تلك الأيام المباركة، وكانت الكتب وحدها تكافح الغزو الأسود لدبق التِّكرار في المكان المُدبَّس بمسامير الصمت الثقيل، الكتب وحدها أنقذتني.

كنت أستشعر حرية ما، تهب علي من مكان غامض، والكلمات دليلي، أتبعها، أجسها، أحلم بها، أعوِّض خيبات الواقع، وأؤمن بها لمكافحة ثبات الصور، وخدر الحركةَ. ومن بين ما وقع في يديَّ ديوان شعر، شكله غريب، مربع التصميمِ، منهك من كثرة الاستعمال، وجدته في مكتبة رفيق بالقرية. استعرته ولم أعده تحت عنوان تلكَ المرحلة ـ أحمق من يعير كتابًا والأكثر حمقًا من يستعير كتابًا ويعيده ـ كان يحمل عنوانًا مثيرًا لامعًا.

بسيط كالماء، حار كجمرة، واضح كطلقة مسدس.

لرياض الصالح الحسين.

قرأتهُ كما أفعل عادة. عندما أتعاطى مع كتاب يمسني، أعيشهُ أتقمصه. أشعر به، أتخيل حبيباتِه، أوقاته، أركض إلى الأماكنِ التي سكنها وخبرها أو مرَّ بها. أحوِّل كل المرويات لأصل إليه. وأظل أيامًا مسكونًا بالحديث عنهُ وأبتعد قدر الإمكانِ عن نقاده ومجامليه. لاحقًا صارت هذهِ طريقتي بالقراءة وحدث هذا كثيرًا وأنا في دمشقَ. عندما قرأت آدم حاتم. رياض الصالح الحسين مرة أخرى، وديع سعادة، أورهان والي، وشاعر آخر ظلَّ بعيدًا جدًا. لا أستطيع أن أقاربَه، ولكنه كان يثير فضولي كلما سمعت باسمِه، كان يدعى آرثر رامبو.

كانت تلكَ هي البذرةُ الّتي زرعت وأثمرت بعدَ عشرين عامًا بهذه الرحلة.

إنّها الكتب، أو بالأحرى روح الكلمات، إذا تعاملت معها بالجديّةِ اللازمةِ ستقودُك إلى ينابيعَ غير متوقعة ستتدخل في قدرك، وتجوب بك أصقاعًا لم تحلم يومًا بزيارتها. إنها الكتب والثقافة التي يحاول الكثير النيل منها والسخريةَ من أصحابها، والتّنصل من قوّتها والتشكَيك بجدواها.

هذا الكتاب بجوهرِهِ هوَ ردٌّ جزء من الجميل لكل تلك الكتب الساحرة الّتي عشت معَها وعاشَت معي، وجعلَتني أعيش كما أردت دائمًا.

هذا الكتاب مدين لمن علَّمني كيف أقرأ في تلكَ الأيامِ الحالمة، وليد عزام وقسوته الباهرة حين يتعلق الأمر بالأدب، ورقته الحالمة حين يصححُ أخطائي ويمنحني مفاتيحَ النصوصِ الشهية، وخطه الرَّقيق على الكتب التي أعارني إياها وهو يحاور الكتَّاب بعلاماتِه المنصفة.

هو من درَّس اللغةَ العربيةَ وجس أسرارَها، وجمع كنوزها ومنحها لي بلا شح ولا خوف، بل بإيمان كامل بأنني سأصلُ يومًا إلى أرضِ الكلمات النقية.

الفصل الأول

رحلة إلى قبور أنيقة

حججت مرة فرأيت البيت ولم أرَ صاحب البيت، وحججت ثانية فرأيت صاحب البيت ولم أرَ البيت، وحججت ثالثة فلم أرَ البيت ولا صاحب البيت.

أبو يزيد البسطامي

في كل مرة كان يستعصي علي شرح شيء من (الروح السورية) كما أراها وأحسها كان رياض الصالح الحسين يأتي ليلخص ما أريد إيصاله، بصورة تسحرني. فالروح السورية لم يتم توثيقها أو الغوص بها. ويرفض الكثيرون أنها موجودة حتى جاءت الثورة السورية فاكتشف السوريون لأول مرة ماذا تعني هذه الروح.

يمكن إيجازها ببساطة كيف هتفت المدن الثائرة بعضها لبعض في إعجاز الحرية، بعد نصف قرن من المكوث في حظيرة الصمت. وكيف ظلَّ شعبها يخرج للشارع سلميًا لأشهر طويلة، ليموت راقصًا، ويعاود الخروج، شيء أقرب للملحمة والفجيعة التي لا تصدَّق.

ربما من هنا كانَ رياض «يُمثلنا». أتحدث بصيغة الجمع عنَّي وعن أصدقاء كثيرين أعرفهم على ما أزعم، يمثِّلنا بفرحه الغامض بالموت،

واستخلاص الحياة منقَّطة من عصارة الألم واليأس. بينما كان مروجو الأمل الواهي والترادف العجيب للقنوط، يحيلون كل كتابة إلى بؤس يضاف إلى بؤسنا اليومي. كَتبة العدم، وبلاغة السواد العميم، ورَّطونا أن نكون حزانى.

الشعر أعلى من الفرح والحزن ومن الكذب والصدق، من الحقيقة والباطل. كلها تصنيفات قاتلة للشعر. بالطبع لا أدَّعي أبدًا أنني أعرف ما هو الشعر.

لكن رياض بقدرته على استخلاص لغة ناصعة وسط فوضى الكتابة وسلطة نظام سياسي أمني اجتماعي مرعب، ارتبك أحيانًا فالتبست قضيته مع لغته مثله مثل جيل كامل، لكن كتابته هي الأنقى دون شك. ببساطة لأنه مات باكرًا جدًا، ربما لم يكن لديه الوقت للتلوث.

من هنا كان رياض صديقي. لم يخذلني يومًا، وكلما عاودت قراءته وجدته وكأنه يعبر الناصية التالية للشارع المجاور، كأنه مازال بيننا ما يقوله ناصع لم يمسه الزمن.

مرات كثيرة كنت أحشو أذنيَّ بالمحارم والقطن، أقرأه وأحسده على هذا الصمم. شعرت أن جزءًا كبيرًا من فقدانه السمع هو سر من أسراره. عاهته امتياز لم يحظ به شاعر، ربما نالها بتهوفن سابقًا، تفقد الأصوات لا الإصغاء.

يومًا سألت صديقي الأصم في الجامعة كتابة ـ وكان قد ولد أصمًا ـ هل تسمع أية أصوات. كتب لي بأنه يسمع كل شيء، دهشت حين صار يشبِّه الأصوات بالألوان والمذاقات. قال لي: إن صوت البنت التي يحبها مزيج من انتزاع الضماد عن الجلد المجروح ورائحة الخبيزة.

الصمم يجعل لكل شيء صوت حتى الجمادات، يجعل الشاعر يختزن موسيقاه، ثمَّ يطلقها دفقًا. لم يتلوث بالضجيج ولا بالثرثرة، وما تحتويه طاقات الكلام المبعثرة لحقيقة اللُّغة واللسان.

كان رياض ناصعًا في جملته وحكَّاء من الطراز الرفيع. فقد السمع عندما كبر بالتدريج ربما في السادسة أو السابعة من عمره، لذلك يتكلم ويقرأ حركات الشفاه ولغة الإشارة، ويستخدم القصاصات فهو لم يهدر صوته ويخبر من عايشه أنّه في لحظات التجلي كانَ يغُني أيضًا.

وأنا لا أحب الإصغاء. قررت ألا أسمع الوعظ ولا الوصايا من أحد، عرفت كيف أصبح أصمًا وأحتال على المنابر التي يعتليها مدرسون، خطباء، وأصحاب المعارف المطلقة ومروجو الأحزاب ومثقفون يعرفون كل شيء، ويتحدثون بكل شيء، وأنا أود أن أكون أصمًا، أقاومهم بالحكي. أنشغل عنهم بابتكار الصمم.

من هنا كنت ألتقي مع رياض، وبكلمة واحدة (أحبه) ببساطة بلا تحليل ولا نقد ولا تصنيف ولا تقديس أحبُّه وكفى.

يومًا صارحني صديق، قال لي: **أستغرب أن يحظى رياض الصالح الحسين بهذا الاهتمام، فجملته الشعرية فيها من التكلف والاتِّكاء على شعر الحداثة الفرنسي في السبعينيات، وجمله بها من الانفعال المضر بالشعر والحشو الساذج أكثر مما فيها من الشعر، وإنّه لم ينج من لغة اليسار «الشاعرية المفتعلة»**.

قلت له: صدقًا هذا يعني الدارسين، أمّا أنا فكل انطباعي عن الشعر أن أحب أو أكرهَ، يمسني فأعيشه أو لا يمسني فأهجره.

وهذا المبدأ الانطباعي هو ما أطبقه وأرتاح فيه، أساخن كان أو بارد. أما الفاتر الوسطي، المتصالح، لا تطيقه نفسي. لا يزعجني أصحابه ولكن نفسي لا تحبه. يجثم الوسطيُّ على قلبي مثل حجر الصوان، كل من يريد الوسط سيحشر عند أمعاءِ القصيدة ومصباتِها.

لأسباب أخرى ربما لأن رياض صديق لم ألتق به، بالأحرى لصاحب جميلٍ شاركني العزاءَ في ليالي الملل الرهيبة في باكورة شبابي، وبقي ملتصقًا بي حتى بعدما شاع استخدام عبارته، بمناسبة أو بلا مناسبة . وأحببت أن أردَّ له الجميل، بطريقة ما. كنت أود أن أقدم له شيئًا ما، شيئًا شخصيًا من صديق، من صاحب.

والصاحب أجود أنواع الصديق، عدت إلى تلك الكلمة الساحرة في القاموس العربي (يا صاحبي) قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل. من وقف واستوقفَ وبكى واستبكى وذكر الحبيبَ والديار في نصف بيت. هكذا علمونا في المدارس، ولكنهم لم يعلمونا معنى الصاحب.

فهو ليس بصديق ولا بخلٍّ وفيٍّ تقتله أسطورة المستحيلات، ولا برفيق، المعني في الأدبيات الحزبية.

إنّه الصَّاحب ذاك الذي يرافقك في مهماتك الجليلة، يشاركك النقاء والتفاهة معًا. المسامحة والانتقامَ معًا. يعادي من استعداك ويناصر من ناصرك وليس موضوعيًا ولا بيَّاعًا للعواطف. صاحبك، من يسمع وجيب قلبك الريان بالأوهام، ويعرف كل أماكن ضعفكَ، ويتقبلك مثلما أنت، وكيفما كنت وأينما حللت. صاحبك شريك الغزو والبحث والتَّرحل في تضاريس الوقت والتطواف لتوثيق المرور فوق الأرض، وبيع الكتب لتسديد إيجار البيت، ويشاركك المرارة ويقاسمك حصصه بلحظات فرح. يؤرشف لكَ صفحات قلبك، ويمسح بعينيه بعض ما تلطَّخ منك بغفلة عنك.

وتحفظ له أسرار الرفقة والقسوة والرقة وسخاء الحياة حين مكثرة، ويعوض القلة إذا حاصرتك الوحدة. صاحبك لا يشهِّر بك ولا يعرض ما قاسمته من قسمة الأيام، ليحظى بمجد على حسابك. صاحبك لا يفاضل بينك وبين الآخرين، ويحميك حتى من نفسك، يسترك، ويوفرعليك مذلَّة السؤال. أخيرًا صاحبك هو الخيار الوحيد الذي تتخذه بملىء عقلك وروحك.

فالأقارب ربما يكونون أخطاء في الفيزيولوجيا، والحبيب خيار غالبًا أقوى وأقسى منك، وحده الصاحب هو خيارك الحر، فإن كان لديك واحد لا تهدره. أخ.. كم خذلني، وكم خذلت من الأصحاب أيضًا فهنا لا أبرِّىء نفسي، ولكن رياض الصالح لم يخذلني، وبالمقابل كم خذله أصحابه؟.

أردتُ أن أصاحب رياض، أردت أن أحجَّ معه، أنقل صوته، أكتب باسمه وعنه وله وبسببه، فهو صاحبي لهذه الرِّحلة، وكان علي أن أختار أين أذهب؟.

لأسباب يمكن شرحها، أو لغموض تقذفك به الحياة، كالتِّرحال بلا هدف، تم اختيار ثلاثة من الكتَّاب الميتين، بعد أن وجدت الصاحب، وبات الهدف أكثر وضوحًا، واجتاحتني تلكَ الهبَّات الساخنة من التشوق لزيارتِهم والتطوافِ حول قبورهم. والوقوف على شواهق حضورهم ورجمِهم بالورود. وذبح الأضاحي من الحبر وشرب النّبيذ من دم عنبِهم. فكانوا:

(آرثر رامبو شارفيل فرنسا، فرانز كافكا براغ تشيكيا، وفرناندو بيْسوّا لشبونة البرتغال).

بالحقيقة كانوا ثلاثة ممن لا أتوقف عن قراءتهم، ففعل القراءة المنجز

لبعض الآثار العظيمة هو خيانةٌ للمعرفة. بعض الكتب حين تفتحها لأول مرة لن تنهي قراءتها حتى تطوي أنت صفحتك الأخيرةَ.

لماذا هؤلاء؟ سيبدو السؤال مربكًا، ولكن ربما بمحاولة الشرح، قد أصل أنا أولًا لمعرفة لماذا هؤلاء؟.

ها قدْ مضى على هذه الرحلة أعوام، حدثت سنةَ 2010 والآن نحنُ في عام 2016 والأحوال تغيَّرت، والبلاد لم تعد بلادًا. وفشلت للمفارقة بالوصول إلى قبر رياض الصالح الحسين في مارع ـ حلب.

هل ستتم الإجابة التي لم أملكها حين شرعت بهذه المهمة؟، وربما لن تتمّ.

لن أتوقع أكثر ممّا ينبغي، أحتاج الوصول إلى الكلمة الأخيرة بهذا المخطوطِ لأعرف لماذا هؤلاء من دون غيرهم. ولماذا ضيَّعت إجازتي في تلك الصيفية في رحلة بها من ترف الفكرة وفقر الاسترخاء الشيء الكثير؟. وهنا علي التذكر والتذكير بأنّنا كسوريين قبل الثورة كنا مثل جميع خلق الله الأسوياء نفكر بالإجازات أيضًا.

سأحاول أثناء استرجاع هذه الرحلة، بعيدًا عن حروق البلد الممزق اليوم بالحرب، والموت الضخم الكثيف الحضور لدرجة تصبح رؤيته نوعًا من المستحيل. ربما بالأحرى وببساطة لأنَّ الموضوع يخص طريقة القراءة، قل لي كيف تقرأ، أقول لك كيفَ تسافر.

أنا حين أقرأ وأعلِّق على كتاب ما أنقله إلى الحياة، أشهره بقدر استطاعتي، أعيش به ومعه ويصل الأمر أن يصبح هاجسي زيارة طبوغرافيا الكتابة، يعني المدن التي تحدث عنها، أو مدينة الكاتب التي كتب منها، أو الشغف بالوصول إلى بعض العلامات الفارقة التي وردت في الكتاب ومعاينتها وجهًا لوجه.

القراءة الصامتة والأحادية والتخديرية، تنتج مجتمعًا بليدًا، القراءة الحقَّة تحرر عقلك وأيضًا قدميك، وتجعلك تنطلق إلى أماكن أخرى.

لذلك هذه الرحلة هي أيضًا للاحتفاء بالقراءة، فأنا سأبقى ممتنًا للثقافة والكتب، وستبقى بالنسبة لي واحدة من أهمِّ خيرات الوجود. برأيي البسيط أن تقرأ كتابًا يعني أن تفتح عقلك وقلبك ومعرفتك، وأيضًا أن تفتح خطواتك، باتجاه الحياة والسفر.

القارئ الجيد لديه مهمة وهي أن يقرأ بجديِّة كاملة، فالقراءة ليست لملىء أوقات الفراغ، فالقراءة بعضُ معانيها التَّبليغ، فلان يقرؤك السلام، أيْ: يُبلغك السلام. والقراءة في جلِّ ما تصبو إليه هي إعادة خلق الحياة، لزيادة سعة الحياة، هي فعل مضاد للموت والروتين والرتابة وسكون العقل والاستسلام للزمنِ من دون جدوى.

من هنا تعاملت مع هذه الرحلة وكأنها حيوات كثيرة عشتها بخصب وصخب وتخبيص أيضًا.

وخلال الأيام الخمسة عشر من الوجد الخالصِ بروح الشعر والكلمات وغواية الكتب واكتشاف المدنِ وحكِّ ظهر الوقت الذي تمطَّى أمامي وسلَّمني رسنه وقال لي انطلق. فلم أبخل عليه بمهمازي ولم يخذلني بأسراره، فحملني فوق كل تلك المسافات الشهية.

ملحوظةٌ هامةٌ جدًا وجبَ التنويه لها: إنَّ هذه الرحلة كانت قبل قيام الثورة السوريةِ، وتأجَّلت الكتابة عنها، طويلًا، فما حملته الثورة السورية خاصة والثورات العربية عامة من تغيرات جذرية في أرواحنا جميعًا على ما أزعم، جعل من هذا الكتاب بطرًا سياحيًا، بينما بلدي يذبح من الوريد إلى الوريد.

لا أريد أن أبرر خروج الكتاب الآن، ولكن كنت قد رميته بعيدًا، ودفاتر الملاحظات التي دونت بها هذه الرحلة ظلَّت متكدسة مهملة طوال سنوات، والفيديوهات والصور الكثيرة التي التقطُّها بقيت تنتظر أن أحن عليها وأُخرجها بهدوء، وأبدأَ باستعادة تلك الرحلة العجيبة. لعلها تنجز ونرمي الجمرات، ونطلق الأضحية بدلًا من ذبحها. لكنني قررت أن أستعيد توازني وعلاقتي السابقة مع الثقافة وأنتج كسوري كتابًا للحياة. ربما يكون تبريرًا أو هروبًا لا أعرف، فما أعرفه أنني كنت محتاجًا بشدة أن أعاود الكتابة لأستعيدَ توازني وهذا ما فعلت. ليس هروبًا مما يحدثُ في بلدي، ولكنْ حين يكونُ الدم أعلى من الحبر، فكل الكتابات عنه مشبوهة أو لها صفة الشبهة، وتبقى مصلوبًا على صليب العجز.

الملاحظة الثانية: كل هذه الرحلة موثَّقة بفيديوهات جيدة التصوير، كنت أظن أنها جيدة كفيلم وثائقي ينتهي بقبر رياض، ولكنَّ هذا لم يتحققْ حتى الآن ولكني جاهز في أي لحظة للذهاب إلى هناك.

فلقد تمَّ حجز مخططِ الرحلة كما يلي: دبي، باريس ـ المبيت لليلة فيها، ثمَّ صباحًا إلى شارفيل مدينَة رامبوـ المبيت لليلة ـ والعودة إلى باريس ثم من مطار أورلي إلى براغ، ـ والبقاء في براغ أربعة أيام ـ ومن براغ إلى لشبونة ـ والبقاء ثلاثة أيام ـ ثم العودة إلى باريس ـ والبقاء لليلة واحدة ـ ومنها العودة إلى دبي.

ستكون رحلة متصلة دونَ توقف، وإذا أتقنت التقنين والتخطيطَ والحجز المسبقَ يمكنُ لهذه الرِّحلة أن تكلفَ أقل مما يدفع عادة لإجازة في مدينة واحدة.

بكل الفرح والترقب، بدأت الرحلة والأهم أغلقت هاتفي، ودخلتُ في قطيعةً مع يوميات الحياة وانطلقت. وفي الطائرة بدأتُ أستعيد رياض

وقراءة بعض من اقتباساته من كرَّاسة الحطَّابين الأشرار ديوانه الأول. بعض جمل كنت قد نسختُها إلى دفتري، فكانت تليق أن أفتتح هذا السفر بكسر أو فتح السين معًا .

لصرير مفتاح الريح، ليعاسب الأحراش نكتب أسئلة فوق ضريح الأشجار.

أن تشرب كل يوم برميلًا من بول الموتى، وتأكل ستة فؤوس

أن تبقي قلبك بمصانع الأحذية، والثلوج الملونة التي كان يجب أن تقطع عنق نابليون أو غارودي.

قتلى متشبثين بالضماد والميكروكروم/ عينها جروح/ حقائب قراصنة/ مدية تحز/ مطابع تتدفق بحبوب منومة/ أبكي جثثًا وفقراء/ مكاتيب بلا طوابع/ الولد الخبيث ذا اللثة الطرية الذي يقشر الحليب من البكتريا والحروب من الانتصارات/ يداي مبداتان/ الشارع ضيق عندما نشتاق، قليل عندما نشتاق/ غصن التعب/ تهذي بأسماء الأسماك/ فتحتْ شاشتي عينيها/ الشمس تمر بأسنانها على عنقي اليانع/ تأكل قلوب الأطفال ببراعة/ لدي قدرة مذهلة على هضم الأوجاع والصفعات الرتيبة التي تأتي كل صباح مع فاتورة استهلاك الأكسجين/ سيسقط الليل بغزارة/ جواربها العشبية تمزقت بحمى الفرح/ مفاتيح نساء تلملم نساؤها روث الحيوانات من الحقول، لتخبز عليها فطائر الزعتر الشهية/ موظفون لزرق الكآبة بالشريان/ عبرت المجنزرات بصدرها كسرب نوارس/ عيد للقبلة وأعياد للقتل/ وكتاب رامبو تخبئه بين ملابسها الداخلية في حقيبة سوداء تحت السرير/ حين كنت صغيرًا كغرسة حُمُّص/ ودعت (س) وتركت على عنقها دمعة حارة كفلفل/ نسفوا لسانك، ثبتوه بسقف حلقك بالدبابيس.

وصايا السفر

ستبدو الوصايا ساذجة في حال السفر، ولكن وجدت أنه من الواجب أن أفتتح هذِا الكتاب ببعض من خبرتي المتواضعةِ في زيارةِ روح المدنِ.

فهذه النصائح لا ترتقي لدرجة الوعظ ولكنها كانت بمثابة خطة عمل كي لا أتشتت. فدخول مدينة غريبة يشبه تمامًا براءة الولادة، كل شيء سيكون مرفوعًا على أسِّ الدهشة والترقب.

ـ جملة قيلت كثيرًا، إن العمارة هي جسد المدينة وإنَّ الناس روحها. لذلك لا بدَّ من بعضِ الأفكار التي تساعد على معرفة الاثنين معًا. وصايا ساعدتني بشدَّة كي أضبطَ إيقاعَ خطواتي، واستمتعَ بدقائق إقامتي المؤقتة.

ـ حين تزور مدينة غريبة احرص على أن تستيقظ قبل شمسها؛ لتشاهد الشروق فيها، وأن كنتَ محظوظًا اعتلِ أعلى نقطةٍ فيها وراقب الغروب.

ـ احرص أن تمشيَ وحيدًا في شوارعِها بلا خريطة وتضيع صباحًا لا تكنْ أحمقًا وتفعلها ليلًا. فالمزعجون واللصوص، وصيادو السياح الأشرار لا يستيقظون باكرًا. أن تتذوق شايها، وقهوتها وتأكل شيئًا من إفطارها، ولا تنسى أن تحفظ روائحها.

ـ أن تشرب بيرتها ظهرًا، ونبيذها مساءً. على أن يكون من صنع المدينةِ التي أنت بها. وإن كنتَ ممن يأنفونَ الكحولَ لا بأس فلا شيء سيفوتك إن عرفت كيف تتذوق الموسيقى، وتسكر بمعرفة شعراءها وفنانينها.

ـ أن تشاهد على الأقل مجنونًا من مجانينها أو شاعرًا من شعرائها. وتتعرف على قديسها الحامي.

ـ أن تزور قبر كاتبِها، تنصت لأحاديث أسواقها، وتأخذ كرسيًا بجانب الشارع تراقب العابرين من أهلها وتحفظ ملامحَهم في ذاكرتِك.

ـ واسأل عن حكايتها فلكل مدينة كنز من الحكايات، ودع المدينة تكشف لك عن نفسها وتذكَّر دائمًا ـ لأنك ابن الحياة ـ فلك حصة في كل مكانٍ في هذه الحياة.

ـ تجنب تجمعات السياح، ومطاعم السياح، ولصوص السياح بمقدار ما تستطيع، تعرف على مسارحها ومصادر فخرها واسأل عن احتفالاتِها فإن كانَ هناك كرنفال أو احتفال شارك به، وإن كنت محظوظًا، شاهد أحد أعراس أبنائِها أو جنازة أحدهِم.

ـ جد مكانًا شعبيًا متوسطَ الحال لتستمع إلى معزوفات حية من أهل البلد في أماكن يرتادها أهل البلد، شارك الناس ببعض من فتات وقتهم وما يأكلون ويشربون.

ـ إن لم تكن تملك لغة المكان الذي أنت فيه، فتذكر إنك تملك الابتسامة، فهي جواز مرورك الدائم فلا تبخل بها.

ـ التقط اثنتي عشرة صورة في كل جهة من جهات المدينة، ولكل مَعْلم تود التعرف عليه، لتكن نصفها لكَ ونصفها للمدينة، لا تحشر نفسك بالمشاهد المكتملة، لا تنظر إلى المدينة من العدسة، لا تسارع إلى الاختباء خلف الكاميرا، واجه الجمال أو التعاسة بعينين مفتوحتين وهدوء كامل، لا تخشى أن يفوتك ما يتحرك فكل المدن النابضة بالحياة ستبقى تبعث لك بشيءٍ جميل يتحرك.

ـ معظم السائحين لا يرون المدينة، يشعرونَ أنهم قد حصلوا عليها بمجردِ أن خزنوها في ذواكرهم الرقمية، سيصعب على ذاكرتك استعادة تلك الصور لوحدها، لتكن ذاكرتك أنت هي الأرشيف الأول، والباقي هو للتنشيط لا للتحنيط.

ـ حاول أن تلتقط المشاهدَ بعينك، حاول أن تقارنها، تحدِّق بها تتأملها، تسأل عنها، تتعرفَ عليها، تجدَ حكايتها، وبعدها كافىء نفسَك بصورة تذكارية. حينها فقط ستدرك أنك قد زرتَ هذه المدينةَ حقًا.

ـ وبعدها افعل ما تشاء .

إلى فرنسا آرثر رامبو

عذبوك، وحرقوا روحك، احتجزوك، داخل جدران «أورا» وكنت تقرع الأبواب بجنون. وعندما أخيرًا، استطعت، الرحيل، رحلت جريحًا، جريحًا وصامتًا، ميتًا رحلت، ليس صحيحًا، أنك سرقت النار، أنك كنت تركض، مع السخط السماوي، ومع حجارة الجحيم الكريمة، وما فوق البنفسجية، لا ليس الأمر هكذا، لا أصدِّقه، لقد حرموك البساطة والمنزل وطوق النجاة، نبذوك، وأغلقوا الأبواب في وجهك، ولأجل ذلك، حلَّقت.

بابلو نيرودا (1972، من: نشيد إلى رامبو)

وصلت باريس ظهرًا، بعد سبع ساعات من الطيران، الإجراءات كانت سهلة. وعبَر باصِ المطارِ انتقلنا إلى الشنزليزيه، ومنه بمترو الأنفاق إلى سان ميشيل، ثم إلى غرفتي في فندق لافونيت، المحجوزة سلفًا.

هناك الكثيرُ ممن تكلم عن عوالم الفنادق، ولكن في أوروبا عدد النجوم لا يعني شيئًا، فالحيِّز صغير في باريس، وكل شيء بالقطّارة وبأقل قدر.

كل الفنادق إن لم تكن تلك الفخمة الملكيةَ، تتشابَه بالمطلق، المهم الحرص على سرير نظيف ومكان خال من الضجيج، وإطلالة ما تعوضك عن بعض الإحساسِ بأنك تتعرض للخديعة.

في تلك الليلة لم أكن أعبأ بكل ذلك، الفندق عليه عرض، وما أريده

يوم راحة، مما يسمى وعثاء السفر. ساعات الطيران من دبي إلى باريس كفيلة بحشو الصداع في صدغي الدماغِ، وتفشل حبات بنادول إكسترا في تجفيفه. لا بدَّ من حمام ساخن ووجبة خفيفة، والتَّمشي قليلًا لمطالعة وجوه الناس في باريس. ومحاولة النوم باكرًا، وبالطبع التأكد من رحلة الغد في الصباح قدر الإمكان. الحرص على حقيبة خفيفة، أخف حقيبة يمكن الوثوق بها، وحذاء مريح، وسيكون البنطال الفضفاض صديقًا ودودًا.

لا نوافل ولا زوائد، سبعة كيلوغرامات هو وزن الحقيبة، فكلما خفَّت حقيبتُك تعمَّقت فكرتك عما حولَك، حكمة يعرفها الكثير ممن يكدسون الحقائب الكبيرة في الرحلات ويندمون ساعة لا ينفع ميزان. أنجزت كل شيء بسرعة، ويبقى للصداع نبضاتُه الخاصةُ، مثل الطرق على جدران الخزان من الداخل، يتلاشى تدريجيًا عند الامتلاء بالمكان.

أمشي في سان ميشيل الحي اللاتيني أبحث عن أثر ما لهذا الولد الأزعر آرثر. مررت بالقرب من فندق الغرباء، حيث قطن بضعة أسابيع حين كان يريد أن يكون ابنًا للشمس، ويخرب الحواس ليصبح رائيًا. هناك عند التقاء نهاية شارع راسين مع شارع كلية الطب. أقمت ليلةً واحدةً واستعددت للذهاب إليه.

شيء ما من باريس رامبو مازال يدل عليه «**إن في نفسي ذعرًا من جميع المدن**»، هكذا قال الولد الشاردُ الضال الذي لم تروضه باريس ولم ترضِه. فنال ما أرادَ، نقمةً جماعيةً حتى من أكثرِ المتحمسين له، ولم يمضِ على وجوده بينهم سوى أسابيع حتى نبذوه وأحرقوه حيًا.

تجرأَ على البرناسيين، حتى أنكروه فقالوا عنه: **الشهاب الذي انطفأَ،**

عبقريةٌ جوفاءُ، الفاسد قليل التربية، التافه والسخيفُ. هذا ما جناه من تقدير بعد أن نصب لهم مرايا شديدة النقاءِ.

مسَّ «بول فيرلين» «بلوثة شعرٍ»، **وحرفَه إلى الطريق المستقيم**. عاث فسادًا في المشهد الثقافي البرجوازي وكشف نفاقه. بوجوده الذي لم يكمل العام في باريس، سنة 1872 وبضع قصائد، سمعوها بدهشة وأنكروها لاحقًا، خطها على مدى ثلاث سنوات وهو دون التاسعة عشر.

ثم قطع علاقته مع الجميع، حتى مع رفيقه الضَّال فيرلين بعد أن خرَّب دورته الدموية والحياتية البرجوازية الهادئة، وشرخ علاقته الزوجية وتركه في السجن يتعذب بالذنب، فالرصاصة التي أطلقها على رامبو لم تصب سوى يده. على كل حمل المراهق الأزرق العينين يده المثقوبة برصاصة الصديق، وقلبُه مشبع بالخسارة وروحه مغموسة بالظِلال، وعاد ليكتب الفصل الأخير من جحيم الشعر.

ليرتدَ فيرلين إلى الإيمان. ويصبح مبشرًا بالمسيحية الجديدة، وليرتد رامبو عن كل تصنيف وينكر الأدب والشعر والثقافة إلى الأبد، حارقًا النسخ التي لديه من كتابه الوحيد الذي طبعه في حياته «فصل في الجحيم» مع كل أشعاره، لكنه أبقى على دفتر «الإشراقات».

في الفصلِ الأخيرِ قبلَ صمتِه الذي مازال يحير كتَّاب سيرته يقول: «فلنتقدم! لنحمل العبء ونسير نحو الصحراء والسأم» فخورًا بالتجرد من كل الأوطان والأصحاب، ثم يصيح: «لا شيء عبثيٌّ فإلى العلم وإلى الأمام»..

هجرَ الشعر بعد أن وصل به وأوصلَهُ إلى قحلِ المطلق، واستذأبَ في

الحياة، فرَّ من أوروبا الباردة الخضراء إلى قحل عدن وصحراء هرر لربما تذيب الحرارة جليد روحه.

آه.. علي أن أهدأ وأؤجل حضوره إلى الغد مستعجل أنا للقائه، والحديث عنه، قرأت عنه ما تيسَّرَ وأكاد أجزم، أنه لم يصدر كتاب بالعربية يخصه ووقعت يدي عليه إلا وأشبعته قراءة وتدوينًا، وتجميعًا. كل ما يخصُّ هذا الشاعر الموسوم بختمِ المنافي بالعربية كان بحوزتي.

طفولة مغموسة بالضوء

الأول الذي رأى ـ في معنى الإدراك الحسِّي كما في معنى الرؤيا ـ في الحقيقة الحاضرة الشكل الجحيمي والدائري للحركة، كان ربما رامبو. شعره إدانة للمجتمع الحديث، لكن عمله الأخير «فصل في الجحيم» إدانة للشعر أيضًا لم يعد ممكنًا، بعد «فصل في الجحيم»، كتابة قصيدة من دون قلق.

أوكتافيو باث شاعر مكسيكي نال نوبل سنة 1990 توفي 1998

ولدَ آرثر رامبو مفتوحَ العينينِ، وكانَ يزحف في الأشهر الأولى باتجاه الباب الخارجي يودُّ الخروجَ، هذا ما تذكره أختُه الكبرى في مذكراتِها لما يتماشى مع فكرة خلق الأسطورة.

ماتتْ أخته روزالي وهو صغير، فاختبرَ معنى الموت وهضمه ببراءة، لمست شفتاه العدم وهو يتحسس وجههَا الباردَ، يطبع قبلة عليه ويجلس ليفكر في الموتِ والفقدان.

كتبَ في الإشراقات: **إنها الميتة الصغيرة خلف شجيرات الورد.**

أبوهُ رقيب طموح في الجيش الفرنسي، خدمَ في الجزائر في فرقة المشاةِ المتنقلة، كانِ معتادًا على إصدار الأوامر ومن المستحيل أن يعيش مع السيدة فيتالي أمّه الحازمة المتسلطة. الواضح أنّ سلطتهُ الوحيدة كانت

في الفراش، فيكفي أن يكون الضابط في إجازة لعدةِ أيام؛ ليخصب رحمها بالأولادِ ويهرب من روحها العاقر.

تكرر مجيئه إلى روش وشارفيل، البلدتين اللتين قطنت بهما العائلةُ وأودع السيدةَ فيتالي، خمسةَ أولاد، بقي منهم ثلاثة، ورحل نهائيًا هاربًا من جحيمِ المرأة المتزمتة، فقررت الوالدة أن تناضل وحيدة بمفردها ضدَّ القدر.

التقصي عن رامبو الطالبِ في المرحلة الابتدائية، سيحيلُنا إلى تمايزه الفذّ، في عدة مواد، أهمها التّرجمة من اللاتينية التي أتقنها قبل الخامسة عشرة، وفنَّ الإلقاء مع البلاغة، وحتى في الرياضيات كان حاذقًا لكنه لم يكن مهتمًا.

كان يقرأُ عددًا لا يصدق من الكتب، اشتغل بمهارة وقوة على تثقيف نفسِه، على عكس ما يحاول بعض القراء السُّذجِ لسيرتِهِ أن يوجهوا إلى أنّه لم يكن قارئًا، وأنَّ الشعرَ يأتي من الفطرةِ، هذا مستحيل عمليًا ونظريًا، لا إبداع بدون مخزون مهما كان حجم الموهبة.

رامبو حقن نفسه بكل ما هو مضاد لسلطة الكنيسة والعائلة (الأم) والمجتمعِ.. الكتب سلواه وقوته، كان نبيلًا في تعامله مع أصدقائه، لاذعًا ولامعًا، ساعده شكلُه الوسيم في أن يكون قريبًا من القلوب، ومدَّته الكتب وتثقيفه لنفسِه، بطاقة هائلة للثِّقة بذاته. واتخذَ شكل الجدِّي المتجهم وسلوك الطائش المستهتر في كل شيء ذي قيمةٍ لدى الآخرين.

خارج المنزلِ كان حرًا، أما داخل المنزل كان مستسلمًا لسلطة الأمّ ما دام يرزح بطور الطفولة، ولكنَّ نزوعه للتمرد كان أسرع ممّا تخيلته الأم الشَّديدة الانضباط.

حتى عمر الخامسة عشرة كانَ مؤدبًا ولطيفًا بالعمومِ «**أجلس كملاك في كرسي الحلاق**» هكذا وصف يومًا نفسَه وهو يستسلِم لنفوذ الأمّ التي تطالبُه بقصِّ شعرِه، والالتزام بحضور القداديس.

كانت أخبارُ الكومونيةِ والانتفاضةِ ضدّ الطغمة الحاكمة التي صادرت ثورةَ 1789 تصل أسماعَه، كان يعرف أنّ الثورة الفرنسية الأولى التي أطاحت بلويس السادس عشر قد بدأت تثمر من جديد، فقامت ثورات من 1820 حتى 1848 الثورات القومية في أوروبا، ثم تبعتها محاولات فرنسا للتخلص من ظل نابليون الثالث. فكانت الكومونية (أو الثورة المشاعية أو الشّعبية) تتكثف في الشعر أولًا ثم تنتقل بالعدوى إلى الأفكار، والأفكار تصبح أفعالًا، والمتاريس تنتصب في باريسَ إيذانًا بالمرحلة الثالثة من الثورات.

في أرشيف المعهد الذي درس به سنتعرف على بعض الكتب التي لوثت خيالَه بجغرافيا الرغبات والاكتشاف، سيكون كتاب ساكنو الصحراء هو أول الكتب المليئة بالرسوم التي حصلَ عليها، فأشبعه تقليبًا وتصفحًا. وبالإضافة إلى كتب التاريخ المفصَّل والمصور لأوروبا وأفريقيا والشرق الأوسط. ستكونُ هذه الكتب بمثابةِ التَّماس الأول مع رغباتِ السفرِ والترحالِ التي قادتْهُ لاحقًا ليقطع أوروبا ماشيًا وصولًا إلى منبع الشمسِ. رسومات وكتب وصور، ظهرت لاحقًا في مجلةِ «رامبو الحي» التي تخصصت بكل شاردة وواردة من حياتِه.

يُدهِش مديرَ مدرستِهِ وهو في سن العاشرة، فيقول لمدرسِ البلاغةِ: **دعْهُ يقرأ كل شيءٍ، أعطِهِ كلَّ شيءٍ. فقالَ معلمُ البلاغةِ: نعم أوافقُكَ إنّه ذكيٌّ لكنْ هناك شيءٌ في عينيه لا أحبُّه، ولا تعجبني طريقتَهُ بالابتسامِ، على كلّ سينتهي هذا الولدُ نهايةً سيئةً.**

كانت بمثابة النبوءة الأولى لأستاذِه الذي استفزَّته لمعة عيني هذا الولد وابتسامته المغموسة بالسُّخرية الفجة.

آه، هذا ما قرأته عنه وتزوَّدت به بجدية كاملة، ولكن كان يغمرني عادة حزن ما غير معروف الهوية في هذه المدينة الغريبة، لدي قائمة من أصدقاء رائعين فيها، وعشرات الأماكن على قائمة الانتظار للزيارة، لكنني اكتفيت بأن أشحن نفسي استعدادًا للغد، وأن أمشي هذا المساء في الشوارع، واخترت للمترو أن يأخذني كما يشاء، فوجدت نفسي في ساحة لاسيه.

هناكَ أعدت قراءة ما كتبته يومًا عن **وجوه باريس**، بشعور من الرضى الداخلي وبانتظار الغد بفارغ الصبر.

إنها وجوه تهمسُ

لا بد من باريس، ولنقتلِ الفضولَ.

تنفرطُ الأوجهُ، تغورُ أكثرَ، لا تحدِّقْ بها، لا تتوخى التعاطفَ، سمِّها، وانسلَّ بينها، راقبْها بحذرٍ وارف، بكِّرْ مع الندى، واحصدْ غايتك من العاصمةِ المأهولةِ بالزّكامِ.

وفنّدْ هذه الرّقعةَ باللوعةِ، بالطيشِ والاحتماءِ، لا دلالاتٌ كثيرةٌ، حصتُك فيها وجوهٌ تعقبُها وجوهٌ.

حرارةُ الذاكرةِ واحتراقُ الشعر

ألا إن الأجمل بين هذه الملائكة الشنيعة كان له ستة عشر عامًا، تحت إكليل من زهر، ذراعاه مكتوفان على القلائد والسجف، يحلم، عينه مملوءة لهبًا ودموعًا.ما تراه يقول صوته العميق والناعم الذي يأتلف مع الاصطفاف الصافي للنار، والذي ينتشي القمر لسماعه؟.

بول فيرلين (1873) شاعر فرنسي شريك رامبو في سنوات الشعر

نمت مزدحمًا بالوجوه، أهرب دائمًا من المدن التي تحمل وجوهًا متشابهة بالفجيعة أو النكران. الوجوه المنتفخة بالنعمة المتشابهة بالبلادة أو المتنغضة بالقهر المكسوة بطبقة من الشمع.

قالَ صديقي التشكيلي إنّ الوجوه في سوريا قبل الثورة كانت شمعية وبعدها صارت من لهب. نمت بتوقعات عظيمة وقلق غامض ينتابني وأنا أتذكر ما تيسَّر من تلك الوجوه التي خزنتها ذاكرتي. حاسبت الفندقَ وجهزت نفسي وفي الصباح الباكر وصلت محطةَ غاردوليس، قطعت التذاكر من باريس إلى شارفيل، صعدت القطار الذي انطلقَ على مهل ومعه انطلقت تأملاتي منفلتة من عقال تسلسلها، ستحتاج الرحلة إلى ثلاث ساعات على الأغلب مع توقف قصير في المنتصف في محطة راميز. كان يكفي لأعيد التّفكيَر بهذا الآرثر رامبو، ولماذا ألحَّ عليَّ ليكون على قائمة أولوياتي، ودون َترددٍ اخترته للزيارةِ الأولى وتعريف رياض

عليه شخصيًا. وجدت أنّ كل الطرق كانت تؤدي إليه. وتحملُني إلى هذه الزيارة عشرات الدِّلالات التي لم أفهمها في حينها، لكنها بدت أليفة خفيفة واضحة كما سأكتشف لاحقًا.

كان السّؤال الدائم، هل فعلًا تستطيع التّرجمة أن توصلَ الطاقةَ المختزنة في روح لغةٍ أخرى؟.

وكيفَ يمكنُ قراءةَ حرارةِ مرضِ الرّوح لشاعر بلغة أخرى مختلفة تمامًا؟ كيفَ يمكن النقل من دون خيانة؟ وهل ما نقرأُ فعلًا من ترجمات الشعر خاصة، هو جمرةُ الكاتبِ المتقدةُ أم هي حرارةُ وبرودةُ المترجمِ؟!. تصدَّى لرامبو مجموعة من المترجمين ولكن سأقول إنّ ترجمةَ صَياح جهيم، وما كتبَه صدقي إسماعيل (منشورات وزارة الثقافة السورية) في كتيبه الرَّشيقِ البسيطِ رامبو قصة الشاعر الثائر، وترجمة حسين عبد الزهرة المجيد الرائعة لكتاب «بيار بتفيز» (منشورات المركز الثقافي الفرنسي في عدن) هي من لامسَت روحي.

ولا بد من الاعتراف بالمجهود الكبير لكاظم جهاد في ترجمته الشجاعة لآثار رامبو الصادر عن دار الجمل، وأيضًا محاولات مترجم من مصر رفعت سلام عن (الهيئة العامة للكتاب) في القاهرة والثالثة لهيام النابلسي عن منشورات (المدى). وكل مترجم يحاول أن يقدم المزيد عن هذا الشاعر، أو يبرر سبب إقدامِه على هذه الترجمة بدءًا من رمسيس يونان، وخليل خوري وصدقي اسماعيل. وليس انتهاءً بالآخرين ستطالعك قصائد رامبو خالية من ثيابها، يكفي أن تضع نفس القصيدة في بياض كل مترجم تقارنها مع آخر لتجد أنه يتكلم عن قصيدة أخرى، على كل اطَّلعت على جلِّ ما تُرجمَ عن رامبو إلى العربية وعقدت المقاربات والمقارنات.

مجهودات فذَّة تشكر ولكن، كنت أستعين بصديقة تتقن الفرنسية

لقراءة نصوصِه، أستمعُ إلى لفظها وجِرسها وإيقاعها، وأتابع المعاني بالعربية، هكذا قرأت رامبو مترجمًا. هل يفي هذا بالغرض؟ بالحقيقة مستحيل ولكنها الطريقة التي احتلت بها على نفسي كي أقول إني قرأت بطريقة مغايرة على الأقل.

هل كلّ مُترجم خائن بطريقة ما؟ ستبقى أسئلة الترجمة المشروعة موجودة دائمًا، بلا إجابات شافية. ولكنّ الذي أعرفُه أني اطَّلعت على آرثر رامبو من كتاب صغير قرأته باكرًا. وجدته مرميًا في عليَّة الكتب، التي نهبتها لأبي. كانوا حوالي سبعين كتابًا، جلُّهم روايات بورق أسمر تفوح منه رائحة الرطوبة. رائحة مدهشة، تأخذ الروح حين تستنشقها إلى لحاء الشجر والغابة والغموض. رائحةٌ ما تزال عالقة في الذاكرة ما أن أجد كتابًا قديمًا معتقًا، بذلك الورق الأصفر الشاحب حتى أُغمض عينيَّ وأشمَّه والغريب أنه مهما كان نوع الكتاب ومصدره في أي مكان في العالم، تبقى تلك الرائحة مشتركة بين جميع الكتب واللغات.

الرائحة تجعل أول ما أستعيدُه كتابًا عن رامبو منزوعَ الغلافِ مجهولَ المحقق، وروايةَ لمن تقرع الأجراس لأرنست همنغواي، ودكتور جيفاكو لباستراناك، وروايةِ تحت ظلال الزيزفون ترجمة المنفلوطي، تعود هذه الأسماء من ذكرى تلك الكنوز، إنها الكتب الأولى التي حفرت روائحها بدمي.

رامبو هدم كلَّ شيء، كتب أقصى ما يمكن من الكتابة. في ثلاثِ سنوات، انغمسَ حتى الغرق ونزل إلى أماكن لم يطلها الكلام. وصل إلى المسدود حيث لا يمكن لكثافة الجسد أن تدخل وعاد ليحرق كلَّ إرثه. وبعدما تماهى مع الشمس كابنها، سلَّط الضوءَ على أعمق أعماق ما يختزن. تجرأَ على النظر إلى أماكن داخل النفس لم يسبقه إليها أحد،

قطعَ المسافة حافيًا حارقًا أطرافَه. وحين انتهى من كتابةِ الفصل الختاميَّ ذهب ليعيش.

رامبو الرجيم خطر على الكهنة، على أصحاب المشاريع الانتهازيِّة، خطر على كل مزايا التنظيم ورعاة التكريس، تفجَّر وسط الجميع، أرعبهم لأنه التقطَ خواء نرجسيتِهم، فضح سخفَهم. سفَّه تباهيهم وقبل أن يجلسوه على ركبِهم ويعاقبوه بالضرب على مؤخرته، ترك لهم كل شيء وغادرَ.

حين استقبله فيرلين في بيته، وقدمه إلى نخبة الشعراء والمثقفين، أعجبوا به في البداية، لكنه لم ير في معظمهم سوى نظّامين، لم يكونوا حملة النار المقدسة، ولا على مستوى رؤيته للشعراء، لم يكونوا هدّامين، أو مقلقين راحة المكان، لم يكونوا قادة أو محاربين، لم يكونوا مختلفين عن نخبة البرجوازية، معطلين، يتبادلون العجز، والتملق، بحياة أقرب للمخمل، كل ما يصبونَ إليه المزيد من المعجبين والمريدين، بينما كان يظن أن الشُّعراء عليهم أن يبشروا ببدايةِ عصر العلم والشعر، وينحازوا إلى ثورةٍ تطيح بوحشية وحوش مجتمعَهم. ففضحهم، عرَّاهم، خرَّب صفو تجمعهم، ما لبثوا أن حكموا عليه بالنفي خارج دائرتهم، لم يستطيعوا تحمل ضوضاء هذا الطفل العاق، وإن كانوا أقروا بأنه يقرع أجراسًا من عالم آخر.

انتقموا منه لاحقًا. لكنّه ظلَّ عصيًا حارًا محاربًا سائحًا خارجَ مدار الرفوف. وكلما ظن الجميع أنّهم أعادوه للمنزل للحظيرة، تسلل صباحًا هاربًا من جديد.

المحاكمة تنعقد في كل كتاب جديدٍ يصدر عن رامبو، في كل محاولة لقراءته، في كل مقال عنه سنجد من يتساءل ماذا نستطيع أن نضيفَ على

عشرات الآلاف من الصفحاتِ التي كتبت عنه، أو له أو من أجله، أو للهروب منه، لقتلِه أو لتمجيده، للاحتفال بشعره الذي لم يتجاوز مئة صفحة أو لتكريسه. هو الخوف منه أو الرغبة في فهمِه، يجعل من يودون الاقترابَ من هذه الشخصية الدَّامغة بالحضور، الآسرةِ بالحياة يرددون تلك العبارة. ماذا الذي يمكنُ إضافته لما قيل عنه؟!.

هل لدي إضافةٌ ما ولماذا أهتمُّ؟ ما معنى أن أضيفَ لما قيل؟ أترانا نقولُ إلا معادًا أو معارًا من لفظنا المكرور. هكذا صرخ زهيرُ بن أبي سلمى وهو يدور في المعاني نفسها والأسئلة نفسها. وردد عنترة هل غادر الشعراء من متردِّم؟ الجميع يدورون في متردَّم واحد. الشعراء وحدهم يمتلكون القدرة على إضاءة بعض النور في عتمة الحياة المتتالية. مختصون بذلك النوعِ من الأسئلة التي لا العلم ولا الدين ولا أحد يملك أجابتها. تلك هي مهمتهم.

أن يجدوا بعض الإضاءات لجسد الزمن، وكشف عوراته، وتحدي شيخوخته ويقارعوا الموتَ بالكلمات، من هنا ضرورة الشعر، لأن العقل وحده لا يمكن أن يستلم قيادة حياتنا القصيرة فهو يجفف ينابيعها، بأدواته الحادة. لماذا الشعر، لأن الشعر ليس زينةً أو كماليةً هو ضرورةٌ من ضرورات وجودِ أيّ أمة، أو مجتمع أو تجمع، هو الرغبة بالإضافة إلى الحياة، صور أخرى غير المعتادة، موسيقى غير المعهودة، وضع إشارات مضاءة بوميض فسفوري في قاع النفس البشرية الشديدة الحلكة.

ولكن حقيقة كل ذلك لم يكن يعنيني، إنَّه يعني الدارسين والموثقين وأصحاب المشاريع الأدبية والجامعية. ما يعنيني هو هذه الروح الشعرية الفريدة الطَّازجة أبدًا التي يتقاطع بها مع شاعر أصم ولد في درعا وعاش في دمشق ومات في مشفى المواساة، ودفن في بلدته الأصلية مارع في

حلب قبل أن يبلغ الثامنة والعشرين. مع أخوته في ملكوت الشعر العظيم بالعالم.

لكي أعرف كيف يبقى الشعر طازجًا، محمصًا وغير محترق، نديًّا في الصباح، ومقرمشًا أواخر الليل، كان لا بدَّ من زيارة شارلفيل. مسقط رأس رامبو ومستقر جسده الناقص رِجلًا، بعد أن بترت ودفن بدونها.

كنت قد وصلت إلى محطة راميز حين أقريت لنفسي بهذا الاستنتاج. فنزلت لتدخين وشرب القهوة لطرد بقايا النعاس، وتغيير ناصية الشعور والتركيز على ما أنا قادم عليه.

فنجان من القهوة القويَّة، وسيجارتان توزعان على دمي الشَّره للنكوتين بعضًا من الخدر اللذيذ، ثمّ الصعود السريع باتجاه إقليم الآردن على حدود بلجيكا. خبَّ القطار وأنا أراقب الحقول بهدوء متشحًا بفرحٍ غامض. كان رامبو يمر بهذه البلدات والسهول ماشيًا، جائعا مهترئ الملابس. ويعود خائبا أو هاربًا تسع مرات من باريس إلى شارلفيل.

كانت البارنسية في الشعر تحتل المشهد، وبعض من شظاياها تصل إلى مدينته، إذًا لنتوقف قليلًا ونستعيد بعضًا مما تعنيه هذا المدرسة الأدبية التي ستتكرر كثيرًا في كل حديث عن تجربته الشعرية؟.

كتبت في دفتر ملاحظاتي إنه عليَّ العودة للتعرف أكثر على البارناسيين، فبذاكرتي يبدو لي أنّهم ضد المدرسة الرومنسية، أحاول حك رأسي بالمزيد دون جدوى، لذلك كل ما ستعرفه هنا عن المنظمة الشعرية، ولا أقول مدرسة، سيعود الفضل به للخال «غوغل» الذي خصني بعشرات الأبحاث التافهة والقيِّمة لأشكل صورة معقولة، تساعدني على فهم بعضٍ من لا منطق الشعر. لولا رغبتي أن يكون هذا الكتاب رصينًا لأضفت وجهًا مبتسمًا أصفر اللون.

لوثة الشعر

ليس ذنب النحاس، إذا استيقظ بوقًا.

رامبو

حين كانت تصل إلى شارفيل شذرات من هذه المدرسة، عبر مجلتهم البرناسي المعاصر تلقفها رامبو كمن ينتظر هدية غالية من الغيب، فيها وجد المضاد الحق للجريدة اليمينية، (رسول الأردين) التي تحرص أمَّه على قراءتها. وتتمتع بشعبية كبيرة وسط اليمين المحافظ والطبقة البرجوازية الفرنسية التقليدية.

كانت ثورة عام 1789، في طور حصد النتائج على صعيد الثقافة، واحتاجت لخمسين سنة ليبدأ الوعد التغيري بالنضج، فكلما أسمع من يشكك بالثَّورات العربية وفق مقاييس شديدة الآنية، أعرف أنهم يتجاهلون تاريخ الثورات وحركتها، وكيف تعبر عن نفسها وتصل إلى نتائجها بعد عقود طويلة.

كان العدو على الدوام واضحًا، الاستبدادُ يولد الاستعباد ويهيئ المكان والزمان للاحتلال.

الثورة الفرنسية ومقصلتها طالت رقاب قادتها بعد أن أزاحت لويس السادس عشر وتكرس إمبراطورًا مغرورًا أقسى وأبطش، ولكن ما كان

لأوروبا أن تعي نفسها، لولا تلك الثورة التي حطمت الباستيل، وأزاحت تاريخًا رازحًا من الثبات ومهدت لتغيرات عميقة بكل أطوار الحياة.

يقول شاعرنا، وهو واحد من النتائج البعيدة للثورة الفرنسية بزعمي. «**أهدم كل شيء، أمسح كل شيء من عقلي، آه كم هو سعيد ذلك الطفل المرمي على جانب الطريق يتربى على الحظ، ويصير رجلًا دون أية أفكار، يغرسها السادة والعائلة في عقله، مخلوق جديد ونظيف دون قواعد ونظريات**».

رامبو في السياسة كان له هدف واحد الحرية. وأظنها رغبة الكثيرين وأخصُّهم دون خوف أو شك رياض الصالح الحسين.

ولكن حين تجد شاعرًا مترددًا، يأول النبض الجديد بالشكوك القديمة ذاتها. حين تجد مثقفا نظَّر للثورة واستدعاها سرًا وعلانية، حين تجد فئة تعيش وتعتاش على أحلام الثورة القادمة. حين تجد مغنيًا اعتاش على الثورة وبشر بقدومها الحتمي وحين قدمت فرشوا لها عوسج التشكيك، هنا ستعرف بالضبط أن مفاهيم كبيرة وكثيرة بالفن والحياة والبديهيات قد انكشفت، وانصعقت، وانشرخت، وبانت حقائقها، في لحظات الحق. الثورة هي بجوهرها تغيير جذري في حياة الأفراد أولًا قبل أن تغير في العناوين السياسية، وأنظمة الحكم.

ظهرت حركة الشعر الجديدة، البرناسية في فرنسا، كنتيجة طبيعية للثورة الفرنسية 1789، بعد خمسين عامًا، فأطلقت ذلك العنوان الذي ما زال إشكاليًا حتى اليوم، الفنّ للفنّ.

من الطبيعي أن قيادة التأثير الثقافي بدأت من الشعر، بوصفه أقوى الفنون قدرة على الاستجابة والخلق السريع. والأكثر من طبيعي أن باريس هي المدينة التي تستطيع أن تعمل على نفي المفاهيم القديمة، وخاصة النَّزعات الرومانسية العواطف، السَّخية بالانفعال الضيق.

فكان أن أصبحت غاية الشعر هي الشعر نفسه وليس شيئًا آخر لا أنماطًا كلاسيكية كالحزن، الرثاء، الهجاء. وفي الحقيقة جاءت هذه الظَّاهرة كرد فعل تنويري على الثقافة المسيحية، والرَّجعة بالأصول إلى تعدد الآلهة، والتخفيف من الزفرات والآهات والإفصاح عن العواطف، وقيادة التَّنوير الجمالي، والكمال الفنِّيِّ، بلغة شديدة الانتقائية، وتطويع الجوهري والجميل والفني لصالح الحياة المعاصرة.

استمدت الحركة اسمها، من جبل بارناسوس، وهو الجبل الذي كانت تقطنه ربات الشعر، توزع به خيراتها على الشعراء الأوائل، والملهمين، المؤمنين والمؤتمنين على الجمال الصِّرف في الطبيعة والحياة. فكانت هذه الاستعادة المدهشة لروح الوثنية ضدَّ ما تبقى من أدب الكنيسة، بالشعر والنحت والموسيقى.

حاصروا القصيدة بالقوافي الرَّنانة. يقول أحد أكبر منظريهم، تيدوردي بانفيل: «**إن القوافي الرَّنانة هي المسامير الذهبية التي تثبت أركان القصيدة**». فحصلوا على الجمال وخسروا روح الحرية الداخلية للكلمات. وصلت تلك الحركة إلى شارفيل عبر مجلتهم، تلقفها رامبو بزهوٍّ، وبدأ يقلد الشكل، ويغرف من ينابيع المعاني الجديدة، الموارة بالتجديد.

أطلق شعره، واكترى البايب الشَّهير خاصته، فكان منظره الأقرب للبوهيمي، هي رسالة التمرد الأولى لسلطة الأم القارسة. والمدرسة المحكومة باللاهوت، والقساوسة في الكنيسة المجبر على ارتيادها كل يوم أحد. كان تمرد بالشكل، وغالبًا يبدأ الشكل بإعلان التغير، يتبعه الجوهر.

أستاذ البلاغة الذي فرش له درب المعرفة وأول من آمن به وتحمل فاتورة ذلك الإيمان. يدعى جورج إيزامبار. اكتشف جورج معاناة رامبو الرَّهيبة في بدايتها حين أعاره كتاب البؤساء لفيكتور هيغو، فما كان من الأم فيتالي، أن بعثت بكتاب احتجاج إلى المدرسة عن نوعية الكتب التي تقلق عقل الجيل الجديد، ومنها هذا الكتاب المليء بالتجديف والتفاهة. فما كان منه إلا أن زار السيدة محاولًا الدِّفاع عن تلميذه ونبوغه وعن هيغو ورواياته. فقابلته « **فم الظل** » ـ كما كان يلقب أمّه ـ فيتالي بصرامة مرعبة، لم تفسح له المجال للحديث بل أمطرته بسيل من المواعظ المحفوظة عن ظهر قلب لكل متزمت عبر التاريخ. فكتب بمذكراته: «**خرجت من أمامها ينتابني الكثير من القلق بعد أن رأيت المحنة الأخلاقية التي يعيشها رامبو**».

كان من الصعب أن تروي عطش الشعر شذرات البرناسي الجديد، كان يحلم أن يصل إلى باريس ويشاركهم السكن في المعبد.

فتشجع وكتب إلى ثيدور دي بانفيل أحد الآباء المؤسسين لطليعة الشعر البرناسي.

هل تعتقد أن هذه الأشعار يمكن لها أن تجد مكانًا في جريدة البرناسي المعاصر؟.

كتب برسالته لهم: **أنا غير معروف، ولكن ماذا يهم، الشعراء أخوة، وهذه الأشعار تؤمن تحب وتأمل وهذا يكفي.**

في مدينته كان رامبو يخوض معركته مع الثابت، طلاب اللاهوت ضد طلاب العالم. وكان على رأسهم ومن معه يعرفون أنه الوحيد الذي يمكن

أن يحقق اختراقًا بالتمايز، في الأدب اللاتيتني، ودروس الدِّين، والإلقاء، واللغة.

فكتب «**قلب في قبضة الكاهن**» من وحي فصل البؤساء لهيغو «**قلب تحت الصخرة**».

وهنا تبلور وعيه الأول، إن الله يمثل الواجب، والتأديب والعقاب، والتَّقييد. وأصبح من يومها فصله صعب جدًا عن صورة الوالدة، ورجال الدين، وطلاب الكهنوت البلهاء.

فخطَّ في قصيدة الشر:

إله المذابح الكنسية الجشع نائم

الناس يتقاتلون، ولا يستيقظ إلا حين تقدم له أم ثكلى النقود.

في حضرة الشاعر الأزعر

أيها الطفل الذي يشبهني..
تعال، ولنصعد معًا إلى السماء!
هنا، لا يمكن حقًا الوثوق بأحد..
فالقلوب المضطربة لا تعرف سوى مباهج كئيبة!

رامبو

وصلنا بلدته «شارلفيل» نزلنا من القطار كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة. أمام المحطة توقف قطار قديم خرج عن الخدمة منذ أيامه على ما يبدو. قطار بخاري قديم، شيء من الماضي الأليف، هو أول ما لفت نظري، لو أنه يملك القدرة على نقل أحاديث ركابه لربما أخبرنا عن «الأزعر الرائع»، «الصوفي المتوحش»، «النيزك العابر الهائل»، «الملاك المنفي»، الذي أوقفه الرهبان هنا قبالة هذه المحطة، وأعطاه أحدهم عشر سنتيماتٍ وقال له: خذ يا صغيري وقصَّ شعرك. وضع رامبو القطعة النقدية في جيبه. وهش بوجه الراهب: شكرًا لأنك وفرت لي التِّبغ اليوم.

إنّه في عامه السادس عشر، حيرة تلو أخرى، نزق مغموس بالتوق للمجهول، عطش للكتب، قراءة تقرب حد الالتهام، قسوة إسبارطية على النفس وتوق ذاتي للعقاب. والمشي ثم المشي ثم المشي. في كل اتجاه ولأي سبب علَّ أفقًا ما ينفتح ويأخذ بهذا الأفَّاق عديم القلب.

يخط في كتابه الرجيم «فصل في الجحيم»:

«**تخلصت من كل عاطفة وحقنت نفسي بكل أنواع السموم..**»

كل قصائد رامبو بعد عام 1871. يستحيل أن يكون منبعها القلب والعاطفة. يقول بيار بتفيز فقد تحصَّن عن العدالة المشبوهة والعواطف الطَّبيعية. سمَّى الأشياء بأسمائها الأولى من دون تورية ولا مواربة بعد أن غطَّسها بحبر الخفاء، الرمزية، التي ستدين له بكل شيء لاحقًا. يقول: «**أفلحت في أن أزيل كل رجاء إنساني وخنقت كل فرح**».

أجده مخاطبًا البرناسيين ساخرًا من رومانسيتهم. ساكبًا سمًّا على أزهارهم يقول لهم:

سلحة طير بحري تساوي كل الزهور المبثوثة في قصائدكم

حبذا لو فعلتم ما هو نافع. اكتبوا شيئًا عن آفة البطاطا.

تلك الصرخة التي سيجلد بها شعراء عصره، تبدو صالحةً لكل العصور وخاصة لشعراء هذا الوقت. أتابع استراق النظر إلى المكان الذي تربى به وعاش به ومات به آرثر، لم تتغير الألوان والأشجار كثيرًا، لم تقتحم يد الإنسان هذا الدَّغل المتتابع من الخضرة الودودة، ولا هذا الطقس المتقلب.

حين وصلت أخبار بداية الكوميونية (أول ثورة اشتراكية في العصر الحديث) القادمة من باريس، سار ساخرًا من طلاب اللاهوت والبرجوازيين الذين شلَّهم الرعب. كان يتحدث بعربدة وإيمان عن عصر العلم والشعر الذي سيخلف عصر الدجل والمال، ويضع الحرية المنتظرة تحت تصرف الجميع.

صارت أفكار روسو وبرودن ولويس بلانك، رواد الأفكار الاجتماعية

الثورية التي أسست لمنهج جديد، وبشرت بالحرية، ومن ثم بالعدالة وبعدها بالديمقراطية. وهنا يجب القول إن الحرية تحتاج لعقود بعد نيلها لتؤسس لقيام العدالة، وهي تحتاج إلى روح مقاتلة مضحية لا تقل عن تضحيات الحرية.

في طور تلمس الحرية، سيحكم الأقوى وغالبًا هم العسكر، ستطيح بهم العدالة لاحقًا، ولكن سيبقى أرباب الثورة المضادة متلونيين وموجودين، حتى قدوم الموجة الثالثة من الثورة فحينها فقط يمكن الحديث عن الديمقراطية. كل ثورة تحتاج لمئة عام لتنجز ثالوثها، وليس أقل من ذلك مهما حاولت أن تختصر المسافات، وجود الشعراء المقاتلين، بوصفهم طليعة المثقفين يساعد على بلورة ما تنجزه الثورات إن عجزوا عن ذلك، تحت أي مسمى عليهم أن يعرفوا أنهم على قائمة الكنس والتجاهل مهما كانت عظمتهم وقوة أفكارهم. ارتيابهم بحقيقة الثورة هو أنانية ونفاق. مهما استبشعت الثورة وتلبست بثياب القتلة يجب ألا يدخل الشك قلوبهم. وإلا تحولوا إلى مرتزقة حزانى على هامش مأدبة الحياة.

أفكار أولئك المفكرين والكتَّاب أضحت أسرابًا من الطيور الكاسرة تنقضُّ على رمم البرجوازية المتعفنة وأتباعها من المتدينين الكلاسيكيين. دمغت شارلفيل بالرعب وهي ترى تلك العبارة التي خطَّها رامبو على باب الكنيسة «فليسقط القدير» طفلٌ في معهد ديني في مدينة متدينة لأمٍ عاشت حياتها امرأةً مسيحيةً مخلصة، كيف تجرَّأ على فعل ذلك؟ من أين جاء بهذه الشجاعة؟.

قبل موته بأيام استدعت أخته الكاهن ليأخذ اعترافاته، خرج ممتقع اللون، قائلًا: أخوك لا يحتاج إلى الاعتراف، إن لديه أيمانًا أعمق من كل ما رأيت!!.

الكنيسة ما تزال مكانها وساحة شارفيل تحتفظ بنفسها، والبشر هنا مسترخون أكثر من باريس. يبدو أنه امتص كل قلق من هذه البلدة وللأبد.

تقدمنا باتجاه مدرسته التي أصبحت معهدًا باسمه. فيها كتب ساخرًا من كل أشكال التدجين «**يجب أن لا تبلى سراويلنا فوق المقاعد**».

كشط الصَّدأ عن الرّوح البشرية جعلها «**مَهُولى**»، «**الجسد كنز للتبذير**»، و«**الديك الذهبي سيفتح سموات تهطل نبيذًا**»، والشاعر الرّائي يخرج الكلمات مكتنهة بالأصوات والرّوائح والأشكال ليصل إلى ذلك. كان عليه أن يعطب الحواس ومجسات العقل البارد ويدمر المنظومات السائدة في كل شيء. بلا أي رجاء. فكحَّل عينه بماء الرؤية، وشطبها بشفرة حادة، فزَّر سوائلها اللزجة، فصد الدم الملوث بالأيمان، قال نصوصه بلغته الحادة، ناقش آراء باسكال بمزاج تهكمي وسخرية فادحة. كانت بدايته تحد وارتجاف، سخرية مرة وطهارة ماء الشعر، وكتب رسالة الرائي التي ستصبح علامة فارقة في تاريخ الشعر: «**أقول أن على المرء أن يكون رائيًا. عليه أن يجعل من نفسه رائيًا. فالشاعر يجعل من نفسه رائيًا عبر اختلال مدروس طويل هائل لكل الحواس. لكل أشكال الحب، الألم، الجنون. يبحث بنفسه، يستنفد كل السموم في نفسه ولا يحتفظ منها إلا بالجوهر. عذابٌ لا يوصف يحتاج فيه إلى كل الإيمان، إلى كل القوَّة الخارقة، حيث يُصبح بين الجميع، المريض الأكبر، المجرم الأكبر، الملعون الأكبر، والعليم الأسمى، لأنه يدرك المجهول..**».

كانت أيامه شديدة التّحول ووعيه متفجرًا، وأفكاره ممسوسة بهاجس التَّجديد والحرية، والبحث الدؤوب عن صوت خاص بدأ يسمعه في أعماقه، وما عليه سوى أن يجد الطريقة لإعلانه.

غراميات غير مرحة

نعم بكيتُ كثيرًا ...
فكل فجر كئيب وكل قمر قبيح وكل شمس مُـرّة!
ملأتني حدة الحب بخدَر النشوة
فليتحطم هيكلي ولأغرقْ.

رامبو

أبقى رامبو غرامياته موعودة في قفره المتَّسع. أحبَّ دفن جثة حبيبته عميقًا من دون شاهد. وأفردت الكتب الثلاثمائة التي كتبت سيرته، مئات الصفحات عن البنت ذات العينين البنفسجيتين، التي شاركته المحاولة الثانية للوصول إلى باريس بعد أن باع كتب أستاذه وساعته. كان خوفه من الحب هو خوفه من تشتيت طاقته الداخلية، كان يعرف أن الحب سيودي به أسيرًا للآخر، لم يكن هذا المراهق صالحًا للحب، ربما لأنّه لم يكن يعرف كيف يعبر عنه لإنسان، وأصلًا كل من يقترب منه يمكن له أن يذوب من وهج حرارته الداخلية المضطرمة بالتناقضات والتساؤلات والبحث عن الذات.

كان مستحيل أن يحب، فهو شديد الكثافة، الحب يحتاج أن يشف الإنسان. وكانت ذات العينين البنفسجيتين المحاولة الأولى والأخيرة للاقتراب من المرأة طوال فترة لوثة الشعر.

كان يتسكع بلا اكتراث بالحرب، يبحث عن الكتاب والفنانين من دون جدوى، فمزاج باريس الجائع لا وقت لديه للوثة الشعراء، صرخ بها «**ما باريس إلا معدة**».

رحلة العودة من باريس الجاحدة ماشيًا استغرقت أسابيع، ليصل إلى أسوأ مكان يمكن أن يعود إليه، منزل الوالدة «**فم الظل**».

أقف أمام المنزل رقم 5 بجوار المطحنة القديمة، التي لم يكن يعرف يومًا أنّها ستكون متحفًا خاصًا به، أحاول أن أراه بثيابه الممزقة وسعاله المخرش، وقد خسر بضعة كيلو غرامات وحلمه بالكوميونية وشغفه بباريس. لكن حلمه تحطَّم، سيكتب عن خذلانه بوجع مدهش «**قلبي يريِّل في مؤخرة السفينة**».

يُمجد من قتل على المتاريس وفي السهول، يؤرخ موت الثوار بقصيدة تلمع بالحزن الشَّفيف والجمال.

إنها كوة من الخضرة، يشدو فيها وداد يعلق بهياج على الحشائش

سرابيل من فضة، تلمع فيها الشمس من الجبل المزهو

هو: واد صغير يرغي بالأشعة

جندي شاب، فاغرٌ فاه، حاسر الرأس

تسبح رقبته في الغثاء الطريِّ الأزرقِ

ينام؛ وقد تمدد على الحشائش مغطىً بالسحابة،

شاحبٌ في سريره الأخضر، يهطل عليه الضياءْ

قدماه في دلابيث الماء، ينام و يبتسم كما،

كان يبتسم طفلًا عليلًا و يغفو

يا طبيعةُ، هدهديه بحرارة:إنه يشعر بالبردِ!

لم تعد الأطايب تهز أنفهُ،

ينام في الشمسِ، ويده على صدرهِ،

هادئًا. له ثقبان أحمران في جانبه الأيمن

أصعد الدرج إلى غرفته العلوية العارية، أفتح الشباك على نهر مُوز، ثمة مركب قديم يتهادى، من هنا استمد قصيدته الأبهى «المركب السّكران». ينفجر الشعر من حولي، يقينية الزيارة تتحقق، جمال المكان ومعرفتي النظرية به، أراها متجسدة أمامي. أردد بعضًا من الأبيات التي صعقت شعراء باريس ذات ربيع.

حيث هبطت أنها ساجية

لم أعد أشعر أن قاربي ينقاد خلف الجرارين

لم أكن أعبأ بأيٍ من الطواقم

والأنهارُ تدعوني لأهبِط منها حيث أشاء

في هيجان الموج العاتي

أنا الشتاء الأصم

أجري وأشباه الجزر المنطلقة معي

لم تتلق الضجيج بفرح النصر

العاصفة باركت هِبابي البحريَ

وأخَف من قَشة فِلّين

رقصتُ على الموج

هنا لا بدَّ من التوقف حول ما أميط عن حياة شاعرنا العاطفية، وعلاقته المحرمة مع فيرلين. شاهدت الفيلم الذي أنتج عنه سنة 1995.

سيكون التَّقصي عن علاقة الشاعرين المحرمة، من هواة بعض المشغولين بفضائح الجسد، ولكن في فيلم الكسوف الكلِّي، لعب دي كابريو دور رامبو، وديفيد ثويليس دور فيرلين، بتوقيع المخرجة البولندية أغناسكا هولند. وكتب السّيناريو البريطاني كريستوفير هيمبتون. كلف انتاجه 6 ملايين و780 ألف يورو. ولم يحصد عائدات في «البوكس أوفيس» أكثر من أربعمئة ألف دولار، خسارة فادحة مني فيها الفيلم، لكنه يقدر بكثير من المشاهد أن يجسد بعضًا من حياة آرثر.

المشهد الأول في الفيلم لأيزابيل مع فيرلين تحاول الاستقصاء عن أخيها وحقيقة العلاقة بين الشاعرين، سيتذكر فيرلين دون أن يبوح، كيف وقع بعشق روح هذا الصبي الأزرق العينين القاسي القلب، وكيف أنّه في إحدى اللحظات العميقة بعد أن طلب كأسين من مشروب الغياب، همس له أنا أحبك.

تبرم آرثر من العاطفة الضعيفة التي تلبست صديقه، وبدأ بالتذمر ماذا تعرف عن الحب؟.

فأجاب فيرلين: **إني لا أعرفه إني أعيشه معكَ.**

فطلب منه رامبو أن يمدَّ يده مفتوحة على الطاولة، ففردها له، فأمسك بسكين ضخم وبدأ يمررها على اليد حتى وصل إلى خاتم الزواج الذي

يربط فيرلين بمتيلدا زوجته وأم طفلته، يحاول اقتلاعه، ثم بلحظة قاسية يطعن يد صديقه من المنتصف أمام دهشة صاحب الحانة المصاب بالذُّهول من هؤلاء المجانين. في المشهد الثاني، وجه فيرلين يتشنج ويعبر عن أكبر المشاعر غرائبية، ويده المضمدة متكورة بجوار رأسه وفوقه يمتطيه آرثر في لحظات أيروتيكية تؤكد وجهة نظر الفيلم، أن العلاقة بين الشاعرين كانت محورية بالشذوذ المتبادل.

يؤرشف الفيلم، لرامبو وفيرلين في حضرة شعراء الحي اللاتيني، وكيف تصرف رامبو برعونة واستهتار واحتقار في أمسية كانوا يتناوبون فيها القراءة، ووصل به الأمر أن يمسك بسيف ويخدش به أحد الحضور. ثم يقف ليتبول على الطاولة التي تضم كبار الشعراء الفرنسيين في تلك الحقبة.

سيجد فيه فيرلين روحًا معذبة متمردة، ولم يعد يستطيع أن يحميه في مجتمع الشعراء الباذخين الذين رفضوه وطردوه، واتهموه بأنه عبقرية جدباء، أزعر نضب شعره وبقيت زعرنته.

فيرلين ترك ماتيلدا ومكانته ولحق بشاعره مؤمنًا بمقولته على الشاعر أن يكون رائيًا، يطرح عن نفسه كل رجاء إنساني، عليه بتشويش الحواس وتعطيلها لينهل من مخزون اللاوعي، فهو وحده الذي ما زال يمثل نقاء الإنسان. أغوى آرثر الفتى ذا السابعة عشرة، فيرلين المتزن المحتشم الزوج والأب البرجوازي، بمغامرة مدهشة تشردا خلالها في الريف الفرنسي وصولًا للبحر الذي رآه لأول مرة بعيني صديقه الفائضتين بالزرقة المتوحشة.

سيكتب رامبو الإشراقات من هذا التجربة، ويتغير شعر فيرلين وينصَّب

لاحقًا أميرًا لشعراء فرنسا. ستكون التجربة واحدة من أعظم اللقاءات بين صاحبين في تاريخ الأدب. ما يجمعهما ليس الشَّغف الحسي كما حاول البعض دمغهما، بل تجربة خطيرة بجوهر الشعر، كان الجسد أحد تجاربها وليس محور تجربتها.

أما الحب بينهما، فهو أفلاطوني، ومعنى الحب الأفلاطوني على عكس ما هو شائع كرديف للحب العذري، بل هو رأي أفلاطون نفسه بالعاطفة التي تجمع البشر، حين قال: إنَّ الحب الحقيقي لا يحصل إلا بين مشتركين بنفس النوع، ذكور مع ذكور وإناث مع إناث. أما التزاوج والاستمرارية فلا شأن للحب بها. ونادى بإلغاء الفردية في الزواج.

فرامبو لم يعرف عنه خوضه لتجارب مثلية جنسية سوى مع فيرلين، وكان دون الثامنة عشرة، وهو الموضوع تحت مكبرات كتاب السير اللذين لم يتركوا شاردة من حياته إلا وفصفصوها، ولا واردة إلا وشرحوها. لذلك لم تكن العلاقة الحسِّية بين الشاعرين سوى انعكاس لفكرة رامبو التي تبناها فيرلين، وهي بإعطابه كل الحواس والذهاب بعيدًا في التجربة الإنسانية إلى جوهر الذات، وخوض التجربة للأقصى، بما تحمله من مذموم أو محمود والعبرة في النهاية في النتيجة كيف تتحول التجربة إلى وعي شعري.

أخرج من البيت الذي يضجُّ بالأصوات، فالبيت أصبح متحفًا ونقلت ممتلكات الشاعر إلى المطحنة المجاورة، غرفه على حالها مؤثثة بالفراغ والانتظار، شيء يعقص القلب. ألوب بين جنباتها باحثًا عن أي أثر، ثمة شيء ما غامض بالهيبة، ظل الأم التي قاتلت بكل ما تستطيع لتؤمن حياتها وحياة أطفالها. وشبح يتلامح لطفل شديد الوسامة، يملأ المكان بالضجيج. **لم أعد أرغب بشيء لم أعد أريد أن أكون أي شيء.**

فهم رامبو في عودته الأخيرة وهو في طور الشعر إلى المنزل، لكن في بلدة «روش» تلك الحقيقة قبل أن يجلس في إحدى الغرف ويغلق الباب على نفسه، بينما أخته وشقيقه وأمه، تسمعانه يصرخ، ويضرب، ويزمجر ويقهقه، ظنوا أن الصبي قد جن. كان ينزل للأكل بعد أن تنام العائلة، وتترك له أمَّه الطعام في المطبخ، ويعود ليواصل كتابة فصل في الجحيم، بأقصى ما لديه من لعنات، وتجديف، وتحدي. كان يعرف أنها النهاية وأنَّه على مشارف التاسعة عشر وأن رحلته مع الشعر قد قاربت على الانتهاء.

أبناء الآردن المحافظون صدموا بمظهره العاق، فكان أطفالهم يرمونه بالحجارة. تمثاله وهو مرتكي على يده اليمنى في شارلفيل مازال يُرجم حتى اليوم بالقصاص نفسه، على جبينه طبع حرفان دامغان بقلم أزرق عريض PD وتعني اختصارًا لوطيٌ كبير. مدينته ما تزال تحمل هذا الإجحاف بحقه، مثلما يختصره البعض بعلاقته الحميمية مع «فيرلين» فلا يهتمون إلا بمؤخرتهما وكيف استخدماها.

ستبدو هذه المدينة مدينة له بازدهارها، فأكثر من 100 ألف سائح سنويًّا يقصدونها من أجله، يقتنصون من المكان تذكارات ورسوم، ويدخلون المتحف في الطَّاحونة الجاثمة على نهر «مُوز»، غرف مفتوحة على بعض صوره، مترحلًا، ماشيًا، أو متشردًا، تطالع الزائر، وبقايا أشيائه التي جلبها معه في رحلته الأخيرة، صندوق للملابس، أدوات قليلة متقشفة، محفظة للذاكرة، كتب قليلة من بينها القرآن، وتمثال بورتريه غير جميل في وسط القاعة. ملاعق وأدوات طعام، أصعد إلى الطابق الثاني، أجد صورته على شاشة عرض قاموا بتحريك شفاه ووضع بعض تسجيلات لقصائده فهي مسموعة، حتى يبدو وكأنه يلقيها، وفي الداخل يباع وثائقي عنه، أخرجه

فرنسواز مرتنيه، يمكن مشاهدة مقاطع منه، مصنوع بحرفية مدهشة، ستبدو رحلة العودة على نقالته من هرر في الحبشة إلى عدن هي افتتاحية الفيلم ومنه يتنقل الفيلم بالذَّاكرة الاستعادبة لطفولته، وشبابه المبكر لسنوات الشعر التي لم تزد عن أربع سنوات، لعلاقته بفيرلين وما استتبعها من لغط وأقاويل، لهجرانه للأدب لأنكار شعراء باريس له، لتعلمه خمس أو ست لغات، لقطعه أوروبا ماشيًا من ألمانيا إلى إيطاليا، إلى عمله متطوعًا في الجيش الهولندي ثمّ محاسبًا ومشرفًا على العمل في مقالع قبرص، لرحلته إلى إفريقيا، واتهامه بالمتاجرة بالرقيق، وتجارة الأسلحة، وتجارة الجلود، لزواجه من أفريقية، لتعلمه العربية، لشكوك حول إسلامه. ثم عودته البائسة وقطع قدمه وموته، لتبدأ بعدها أسطورته بالتَّشكل.

وهنا لا بدَّ من التذكير بجملة هنري ميلر حوله، البعض لم ير سوى شعره فظلم حياته، والبعض لم ير سوى حياته فظلم شعره. المهم أن يقرأ رامبو كإنسان من لحم ودم، وهذا ما فعلت. اشتريت الفيلم بعشرة يورو، دفعتها للعجوزين المسؤولتين عن المتحف.

وكتبت في سجل الزُّوار شهادة مرور أودعته تحيات رياض، وغادرت باتجاه المقبرة.

التطهر بالألم

يا لضعفي...
يا لقسوة العالم !!
إنِّي لمختبئ.. وما أنا بمختبئ !
لتوشك براءتي أن تبكيني.

رامبو

بعد أسبوعين من دفن آرثر رامبو يوم 10 ـ 11 ـ 1891 بدون ساقه اليمنى التي قُطعت في مرسيليا. كانت أخته إيزابيل تتصفح جريدة «رسول الآرديين». فوجئت بمقالة مطبوعة على عمودين ونصف مخصصة لرامبو. بكت من الفرح، فأخوها ليس تاجرًا أمينًا وحاذقًا ولا فاشلًا هاربًا كما وسمه الجيران ذات يوم، بل شاعرًا يكتبون عنه في الصحف.

ومرَّ عام على وفاته، همدَ الجسد المشبع بالهزائم والنَّبذ والسرطان، وانبلجت الأسطورة لحياة هذا الشاعر الغريب الذي هزَّ الشعر الفرنسي من جذوره، وهو المراهق الذي لم يتجاوز التاسعة عشر، لينصَّب شاعرًا طازجًا على مرِّ العصور.

بدأت النهاية في آذار/ مارس عام 1891 حيث صارت قدمه تخذله. تلك القدم التي رافقته وحملته آلاف الدروب، صديقته الأوفى، أعلنت له

أنها لم تعد تستطيع المضي أكثر، انتفخت وتورمت وحولت ليله ونهاره إلى جحيم.

باع كل شيء بخسارة، واستأجر 16 حمالًا ليقلُّوه إلى الساحل من هرر إلى عدن.

ستكون تلك الرحلة مؤرشفة بقلمه، رحلة تشبه حقيقة حياته وتلخصها، صمَّمَ النَّقالة بنفسه وجعل النجارين يصنعونها لتوفر له حرية الحركة مستلقيًا، برفقة أوراقه الثمينة ودفتر مذكراته. وكل شيء أصبح جاهزًا في نيسان ذلك العام للمغادرة، فانطلقت قافلته صباحًا في عز موسم الأمطار السخية.

يتخيل هوغوفون هوفمنستال (1912) أحد كتَّاب سيرة رامبو الشعرية والشخصية هذا المشهد ينقله بيار بتفيز حرفيًا:

(نراه الآن فيما ينزلون به من جبال الحبشة «هرر»، على طول الممر الصخري، مستوحدًا، في جوٍّ صامت: اللحظة الآن ثابتة مثل هذا المكان، ويمكن القول إنهم يأتون به إلينا. يرقد على محفَّة، وجهه مغطًّى بقماشة سوداء، ركبته مصابة بمرض، ضخم مثل يقطينة، تنفخ الغطاء. يده الجميلة التي هزلت، هذه اليد التي أحبتها أخته، تنزع، حينًا تلو آخر القماشة عن وجهه، وكان يوجه أمرًا، إلى الرجال السود الذين يحملونه، وقد شاءوا أن ينزلوا المنحدر بهدوء وفي خط منحرف، فيما هو يريد منهم أن ينزلوا عموديًا، خارج الطريق وبسرعة).

ويتابع بتفيز توثيق كل هذه الفترة بجهد جبار. فينقل لنا عشرات الشهادات والوثائق. ومنها يوميات رامبو نفسه، فهو لم يكتب يومياته أبدًا إلا في تلك الرحلة.

كتب رامبو في 30 ـ 4 ـ 1891 إلى أهله قبل وفاته بستة أشهر: **ما الفائدة أن أخبركم عن العذاب الفظيع الذي تجشمته، لا أستطيع السير خطوة واحدة خارج محفتي، أراقب ركبتي تنتفخ والألم يزداد.**

في عدن أدخل مباشرة المشفى الأوروبي، فكروا بالبتر، لكنهم طالبوه أن يذهب إلى مرسيليا، كتب من هناك: أبدل الضمادات دون جدوى الانتفاخ يزداد وظهري متقرح من الاستلقاء، صرت جلدًا على عظم لا أستطيع النوم دقيقة واحدة، والجو شديد الحرارة.

في السادس من أيار/ مايو أيار استلم في عدن شيك ب 37450 فرنكًا. على شكل صكٍّ لا يمكن صرفه إلا في مرسيليا. كتب في مذكراته ساخرًا عن حرقه لحياته مقابل هذه الورقة.

وسافر بحرًا إلى مارسيليا، كانت عشرة أيام من الألم الخالص. يكتب «**ساقي أصبحت أشبه باليقطينة**» شُخِّص المرض بسجلات المشفى العام هناك ورم خبيث بالفخذ.

عجز حتى عن الوصول إلى البنك ليصرف الشيك، بدأ الدمار يغزوه، فقدَ كل رباطة جأشه. بعث بنداء استغاثة إلى أمه وأخته، بعد 12 عامًا وجدتاه أشلاء.

أجريت عملية البتر، يوم 25 أيار/ مايو 1891، وفجأة حدث ما أذهل الأطباء، التأم الجرح بسرعة فائقة، حتى أنّه بدأ يفكر بالرجوع إلى أفريقيا، كتب وأخبر الأصدقاء هناك بأن ساقه بترت، لكنه سيعود قريبًا.

تركته أمُّه أولًا، ثم قررت أخته اللحاق بها، فبدأت الانتكاسة، شعر أنهم يتخلون عنه، كل تاريخه للهروب من سلطة العائلة وجده في أيامه الأخيرة بلا جدوى.

وزاد الطين بلَّة، رَفعُ مذكرة بحث للالتحاق بالخدمة العسكرية، فصار الهاجس شبحًا يخنقه، وبمجرد التفكير بأنه سيسجن كان الرعب يكتسحه يحطم وقاره وقدرته على التفكير، كان مشلولًا لا حول له.

كتب يومها: **لا تسمحوا لهم أن يبتروا سيقانكم، دعوا أجسادكم تتحطم، تنفلق إلى قسمين، تتمزق قطعًا لكن لا تدعوهم يبترون سيقانكم.**

يدخل في أتون الأمل الزائف والشك المرعب في نهاية شهر تموز/ يوليو وبنفس الوقت، كان الوسط الثقافي، الذي نجح قبل عام في تحديد مكانه بأفريقيا وشعراء الحي اللاتيني، يحضرون طبخة الخلود بالترويج له كشاعر كبير ملفوف بهالة الغموض، وفيرلين يستعد ليكتب الوصفة عنه في كتابه الشعراء الملعونين، بمزيج من الأبوة والذنب، وشهرته تتسع تمزج العجيب بالغريب، الأسطوري بالحقيقي وأشعاره تتناقل ومع كل قصاصة جديدة له تعاد الحكاية ملونة متطيرة. وانكبَّ من أدانه بالأمس على دراسته اليوم، أما هو فلم يكن يعرف عن الصخب العجيب في باريس حول اسمه شيئًا، ولم يكن أحد منهم يدري أنه يمرُّ بالمحرقة الأخيرة والعذاب القارس في مارسيليا.

تجذرت العلاقة بالأشهر الأخيرة من حياته مع أخته، إيزابيل، التي رعته بأمومة ورحمة، وحبٍّ لا نهائي، وطلبت أن تنقله إلى البيت..

كان مجرد ذكر البيت، يعني الهزيمة النهائية له، فهو لم يكن يفر من أهله بل من البيت. بكل ما يعنيه من قيم الثبات، والملل، والبرود، والفقر، والسلطة، والاحتجاز.

قالت أمّه **ابقَ هنا سنعتني بك.** ردّ عليها سأحاول أن أشفي نفسي وأرحل. منزل العائلة يعني التَّسليم بالإعدام الكامل وانتصار ماحق عليه

بعد أن هجر الشعر، وهجر أوروبا، ولحق الشمس.الشهر الأخير تدريب متصل على الألم، عودة محزنة إلى المشفى، ومرافقة إيزابيل له.

وحوارات توثقها الشقيقة في مذكراتها التي حاولت جاهدة، تصفية وتنقية موته وجعله يموت مؤمنًا.

كانت تحاول أن تقنعه بأن يقبل دخول القسيس لتلقِّي الراحة الأبدية، لكن سخريته الحادة تزداد طردًا مع الألم المبرح الذي يفتك به. وحين يصفو بين ضكتي الألم، يسألها: **أنت من دمي هل تؤمنين؟**.

تجيب: **أنا أؤمن أنا واثقة من ذلك.**

هو: **يقولون إنهم مؤمنون ليتظاهروا بالهداية، لكنهم يفعلون ذلك كنوع من الحيلة، لكسب النفوذ والمال.**

هي: **كلا سيكسبون المزيد من المال إن ألحدوا.**

هو: **أنا وأنت من نفس الدم ولكن الفرق أنك تؤمنين.**

هي: **على الإنسان أن يؤمن بشيء ما.**

أخيرًا اقتنع بدخول أحد القساوسة، شرحت له أولًا إيزابيل حجم الألم، وطلبت منه أن يساعد أخاها الذي لا يؤمن ويتحمل نزقه وتجديفه علَّه ينجح بمساعدته على طمأنة بعض من قلق روحه.

ساعات مرت، خرج القس بلا ملامح، رسم ابتسامة على وجهه وقال لها:إن لدى أخيك إيمانًا كبيرًا، أكثر من الكثير من القساوسة..

نُقلت هذه المعلومة عن إيزابيل ولا أحد يستطيع تأكيدها أو نفيها ولكن الكل يعلم أنه في آخر أيامه، كان يردد طوال الوقت، بالعربية **الله كريم، الله كريم.**

في يومه الأخير، كان ينظر إلى نفسه كرجل منسي، ولكنه قبل ذلك، صار أشدَّ حزنًا، بدأ بالاستسلام، لقد تأخر استسلامه طويلًا. لكنه في هذا اليوم 10 ـ 11 ـ 1891 بكل لحظات الصحو لم تصدر عنه شكوى واحدة.

كانت الحمى وسكرات الموت، تعود به من خيالات غريبة، سجلت إيزابيل بعضها.

شحنة : ناب واحد.

شحنة: نابان اثنان، شحنة: ثلاثة أنياب. أرغب بالسفر على بواخر أخرى.

في العاشرة صباحًا من ذلك اليوم انضم رامبو إلى قائمة الشعراء الميتين.

حلَّ مريض جديد مكانه، حرر الموظف مصاريف الدَّفن، تابوت من البلوط والرصاص 212 فرنكًا، لوحة مخملية، ستارة حداد من قماش الكريب الأسود، مصاريف متنوعة عربات ونقل، المجموع 458 فرنكًا. على كل كان ما جمعه يغطي كل ذلك ويزيد لتعويض كل ما دفعته العائلة والأصدقاء بسببه من خسائر مادية.

قامت الأم بترتيبات الدفن، استأجرت خمس جوقات من المرتلين وثمانية فتيان وعشرين فتاة كجوقة من الكنيسة. كلف الدفن 528 فرنكًا و15 بنسًا.

كان دفنًا من الدرجة الأولى، في مدينته شارفيل. كما أرادته الوالدة تمامًا. لكنه سدد لهم كل مستحقاته وزيادة بعد أن جيَّر النقود لهم، وأوصى أخته أن تبعث إلى مساعده في اليمن شاب فقير اسمه عبد الله

10 آلاف فرنك. وعلى عكس ما حاول الكثيرون تصويره إنه بخيل ولا يكترث إلا بالمال في هذه الفترة، كان سخيًا وكريمًا يحبه كل من عرفه، ولكن مشكلته الوحيدة إن مزاجيته قاتلة، ونكتته لاذعة. على كل، هذا أصبح بلا قيمة فقد مشى الموكب من شارع الفلاميند المؤدي إلى المقبرة، دخل من هذا الباب، إيزابيل تنوح لا أحد من السكان مدعو إلى الدفن، فقط الأم والأخت والمستأجرون للتراتيل، وحفار القبر الذي أعده بجوار قبر شقيقته.

الأمّ صامدة حزينة وشامخة كعادتها، كانت جملتها الوحيدة، تشبه نوعًا من الانتصار: «**لا مفاجآت بعد اليوم**».

أخيرًا ارتاح الهارب صاحب القدمين المصنوعتين من الريح.

وأما أنا فكان علي أن أمشي بهذا الدرب الأخير لأصل إلى قبره، الطريق مرتفع نوعًا ما، أتوقف أمام موقف باص قبل المقبرة، هنا كتبت بلدية البلدة قصيدة «بوهيميتي» رقشوا قصائده في الفضاء العام، في كل مواقف الباصات.

وراء الموقف متاجر لبيع التحف والهدايا التذكارية عنه، ومحلات ورود، اشتريت باقة ورد، وبضع هدايا تذكارية.

وبرفقة الصديقة رينا دخلنا المقبرة الباذخة الجمال بمهابة ودون عجلة، عشرات الشواهد الرُّخامية البيضاء استقبلتنا، وأيضًا صندوق بريد معلق على الحائط على اليمين، لمن يريد أن يبعث لرامبو رسائل، شرعت بخط رسالة مستعجلة له، تحية من رياض وتمنياتي في أن يتعرف عليه هناك، في أبديته الفاخرة.

وأخيرًا وجهًا لوجه مع القبر المزدوج له ولشقيقته، المسيَّج والرابض بهدوء وثقة، مع علامة شاخصة لتعريف القاصدين دون عناء على وجهتهم دون أن يضيعوا بين زحمة الأموات، وضعت باقة الورد باسم رياض أمام الشاهدة الرُّخامية.

وأخرجت بعض قصائد لرياض، وقرأتها على مسامع القبر، كانت رفيقتي تصور المشهد حين دخل رجل وامرأة وجلسا على المقعد المجاور، وأنا أنهي قراءتي، بصوت عال.

كنجمة في السماء

كوعل في الغابة

أمامي الكثير لأعطيه

وخلفي الكثير للمقابر

أمامي النهر ورائحة الصباح والأغاني

البشر الرائعون والسفر والعدالة

وخلفي الكثير الكثير

من الكهنة والتماثيل والمذابح

وها أنذا أمشي وأمشي

بين هزائمي الصغيرة وانتصاراتي الكبرى

وها أنذا أمشي وأمشي

متألقًا كنجمة في السماء

وحُرًّا كوعل في الغابة

لي وطن أحبه وأصدقاء طيِّبون

بنطال وحذاء وكتب ورغبات

ووقت قليل للرقص والجنون والقنبلة

لقد بدأت أتعلم كيف أبتسم وأقول وداعًا

وبدأت أتعلم كيف أتألم

بعيدًا عن الضجيج والعواصف

أما الكلمة الجميلة، الجميلة

التي تشبه طائرًا أبيض

والتي تشبه شجرة في صحراء

فلقد اكتشفتها متأخرًا قليلًا

مثلما تكتشف السفينة اتجاهها

ومثلما يكتشف الطفل أصابعه وعينيه

لذلك أمشي وأمشي وأمشي

فأمامي الكثير لأعطيه

وخلفي الكثير للمقابر

ولذلك أمشي وأمشي وأمشي

ولا أنتظر أن ينتهي طريقي.

أنهيت المهمة، أشعلت سيجارتي، وجلست لأستريح، اقتربت السيدة منا، كانت أستاذة من أكاديمية رامبو للشعر، الفرحة تعلو وجهها، بعد أن عرفتها رينا على مهمتي، دعتني لأكون هنا في مهرجان شعر رامبو الذي ينظم سنويًا، وعدتها خيرًا حين أكون قد أنجزت الكتاب، والرحلة،

تحدثنا عنه وحدثتها عن رياض الصالح الحسين، وعدتني أنها لن تنسى هذا الاسم أبدًا.

وللحق إنه وصلتني دعوة منها في سنة 2011 للمشاركة لكن الثورة السورية كانت في أوجها واعتذرت عن ذلك.

لحظات عالية بالهدوء في مكان مجلل بالصمت الجليل، ثم بدأت أضحك، سألتني رفيقتي لماذا تضحك؟.

قلتُ لها: إنه داخل القبر بدون قدمه، قدمه تواصل المسير ما تزال تمشي.. ما يزال يمشي..

من وراءنا كانت الكنيسة تقرع أجراسها العتيقة بالرنين المعتاد، الرنين نفسه والكنيسة ذاتها التي كتب يومًا عليها.. ليسقط القدير.



ملحق صور رامبو



القبر



القطار القديم



في ساحة البلدة



مدرسته



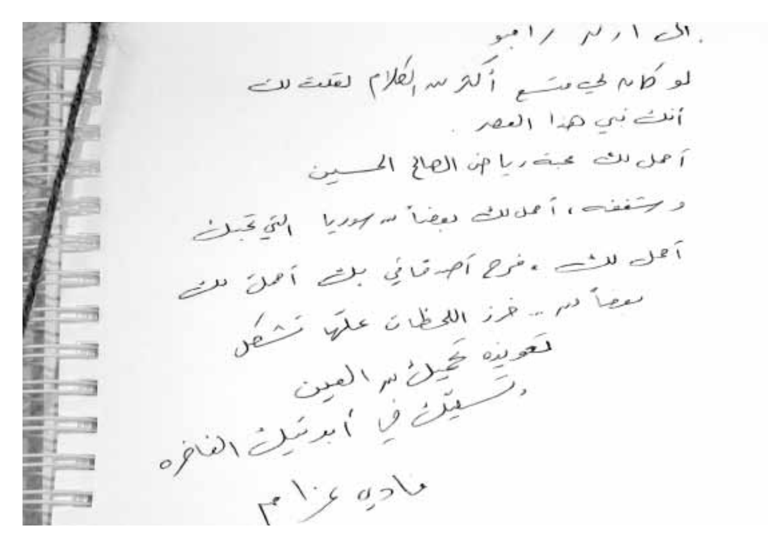
تمثاله



صندوق بريده في المقبرة



بقايا ممتلكاته



إلى آرثر رامبو.
لو كان لي متسع أكثر من الكلام لقلت لك
أنك نبي هذا العصر.
أحمل لك محبة رياض الصالح الحسين
ودمشقه، أحمل لك بعضاً من سوريا التي تحبك
أحمل لك فرح أصدقائي بك، أحمل لك
بعضاً من ... خرز اللحظات علّها تشكل
تعويذة تحميك من العين
وتبقيك في أبديتك الفاخرة
ماده عزام

رسالتي في دفتر الزوار

ا



في متحفه



محل حلاقة باسمه



أقرأ ما تيسر من رياض على قبره

الفصل الثاني

براغ كافكا ..

وَطُولُ مُقَامِ الْمَرْءِ فِي الْحَيِّ مُخْلِقٌ لِدِيبَاجَتَيْهِ فَاغْتَرِبْ تَتَجَدَّدِ

أبو تمام

هذا ليس مطارًا، هذه حظيرة انتظار.

كتبت هذه الجملة في دفتر ملاحظاتي وأنا أنتظر الطائرة المتأخرة إلى براغ. وبخمسة يورو، ابتعت كأس شاي ليبتون في كوب بلاستيكي يحرق الأصابع من الفتاة الوحيدة التي وجدتها مبتسمة في هذا المطار، شكرتها بالعربية مخمنًا أنها من تونس، ردت بود:

ـ يعيشك، وتابعت، أنت لبناني؟.

ـ لا من سوريا.

غالبًا لا أحب أن أقول سوري. دائمًا حين أكتب أنهي أي مقال وأرسله للنشر أذيله بكاتب من سوريا. وحين أعرف بنفسي أقول من سوريا. لا أحب نسبة الأفراد إلى بلدانهم، وأشعر بعدم الارتياح، لو كانت العبارة «كاتب سوري». تعلمت أن ياء النسبة فيها تعميم مجحف، فأنا لي حصة من سوريا ولا أمثِّل كل السوريين، إن كنت جيدًا لنفسي وسيئًا عليها.

على أيّة حال، الصَّبية التي تعمل في كشك صغير في مطار أورلي في باريس، أعطتني ابتسامة أوسع من غيري، وملعقتين سكر زيادة لكأس الشاي الحارق للأصابع. فشكرتها بالعربية مضيفًا كلمة جزيلًا عربون امتنان على الابتسامة.

خرجت إلى شرفة التدخين، وجدت أن البهو المسيَّج بشبك حديدي، يليق بحيوانات السيرك منه لمكان يخص البشر، هكذا يعاملوننا نحن المدخنين، يضيقون الأماكن علينا، يعاملوننا كمجذومين، وأصحاب عاهات، مدمنين يستحقون العزل، نتقبل كل ذلك بإصغار مرعب، لا أعرف فعلًا لماذا لا يتمرد المدخنون؟.

وهل التشريعات التي تقول ممنوع التدخين تحت طائلة المسؤولية، هي تشريعات قانونية ؟.

سقى الله أيام كنا ـ نحن المدخنين ـ أسياد المشهد، ندخن في كل مكان، بالطائرات، بالحافلات، بالمطاعم، بالمشافي، بغرف الإنعاش، يوم كنا نمثِّل القوة والشباب، التحدي والحداثة والإثارة قبل أن يمارس علينا أصحاب النظريات المشبوهة في الصحة العامة هذا الحظر المرعب.

إن أمراض التدخين لا تكاد تقارن بالموت الفاتك الذي تحتويه الوجبات السريعة، وعدد الميتين بسبب التدخين لا يتعدى 10 بالمئة من المقتولين بحوادث السير، ورغم ذلك العالم كله يمجد السرعة، ويصرع ويصدِّع رأسنا بسباقات الرالي والفورمولا دون أدنى وازع من ضمير، يضع ملصقات تحذر من مخاطر مثل هذه الرياضات التي تتسبب بموتى في شتى أنحاء العالم، لكنه وحده ميت النكوتين مذمومًا. لماذا لا يضعون تحذيرات وصور بشعة على التلفونات الخلوية، والكمبيوترات،

لما تسببه من آفات وأمراض ليس أقلها سكتات دماغية، وسرطانات المخ؟.

لماذا لا يضعون تحذيرًا في محلات بيع السلاح، ففرضًا عدد الذين يموتون سنويًا «بالأم سكستيسن» «والكلاشنكوف» «والعوزي» وما تسببه من موت كأدوات أكبر بألف ضعف من السيجارة المسكينة الأليفة المغلوب على أمرها.

على كل أنا في حالة انتظار حتى تنجز الكاتبة نسرين طرابلسي روايتها التي أجزم أنها ستكون مدهشة وخاصة وغير مسبوقة، حول التاريخ الثقافي والإنساني للتدخين والمدخنين، وربطها بسلوكيات البشر والشجر والحجر، فواحدة من أوفى أصدقاء التاريخ الإنساني أي: السيجارة أو كتلة التبغ لا بدّ من ردِّ الاعتبار إليها، من المعيب أن يشرب سكان الأرض كل يوم ملايين الكالونات من سموم البيبسي والكوكا كولا، دون خجل وتدان أجمل وأصدق رفيقة للإنسان ـ السيجارة ـ بهذه القسوة. لماذا لا يمنع العالم البراميل المتفجرة، وهي تفتك بالإسمنت والحديد والصلب، وتبقي الرئة سليمة..؟.

فكرت بكلّ هذا وانا أمجُّ سيجارتي في حظيرة المدخنين وأراقب الغروب الكالح وهو يهبط رويدًا رويدًا على باريس.

دخنت ما استطعت إليه سبيلًا، وعدت لأكتشف أن الطائرة متأخرة عن التأخر الأول حتى إشعار آخر. شعرت بالاختناق، على كلٍّ صرت ألوب في السوق الحرة، أجرِّب العطور المجانية، أتأمل المعروضات وأتساءل كيف أصبحت كل المطارات متشابهة البضاعة؟.

في المطار يحدث دائمًا تدريبك على الانتظار، عليك تقبله بلا عنجهية

ولا تساؤل وتسلم، به لا أعرف لماذا يصبح الإنسان أليفًا بالمطارات. ويقبل بكل هذه الشكوك والعيون المتربصة وكاميرات المراقبة وإحصاء الأنفاس دون أي تذمر يذكر أو احتجاج حقيقي. إن التَّمادي بالسماح لسلطة المطارات أن تكون بهذه السطوة، سيجعلها مغرورة وفوقية أكثر مما هي الآن، يجب وقفها قبل فوات الآوان. لأنَّه من السهل سحب سلطتها من المطار إلى المدينة.

كان لا بد من معالجة الانتظار، أي: فعل الحبس والاحتجاز اللطيف الطَّيف كما يبدو، الغير قابل للتَّساؤل، فقط يأتيك الأمر أن طائرتك متأخرة. تقبل وتنتظر وتذعن مثل أيِّ مسافر مروض وخال من الانفعال وتخرس. تحاول أن تجد ما يلهيك لتقطيع لحم ذبيحة الوقت. تتحول إلى جزار في الانتظار تسفح الزمن بلا أدنى وجع من ضمير حول التفاهات التي تقترفها بالمطارات، والأنكى أنك لن تتذكرها أو تذكرها لاحقًا.

اشتريت بعض الصحف العربية، ومشيت بتمهل، ابتعدت قدر المستطاع عن ضجيج العائلات والأطفال، وأرخيت كلكلي ومتاعي على المقعد المنزوي بعيدًا. فمن تجارب السفر القليلة التي قمت بها، تعلمت جيدًا، أن وقت المطارات لكي يمرَّ سريعًا عليك أن تستمتع به. أخرجت مخططي السابق عن براغ وبدأت أراجعه، كل المعلومات التي لدي، تفضي إلى مقولة واحدة، براغ مدينة لا تقتنص باللغة، ولم يستطع أحد معرفة مفاتيح أسرارها.

بحثي عنها، أوصلني إلى بعض ما كتب هنا وهناك، ولكن ليس لدي من المراجع العربية الشيء الكثير، والزوار العرب ممن يدوِّنون انطباعاتهم عن الزيارات المترفة ليس لديهم ما يفيد، سوى بمعرفة أفضل المطاعم

وأحسن أماكن الشراء، والمعلومات السياحية غالبًا ما تكون مجمَّلة ولا تشبه الأصل، مهمتها تجريد السياح من آخر بنس بحوزتهم. لا أريد أن أصبح مثل السياح الذين نراهم في بلدنا، فقد كنا حين نلتقيهم في المواقع الأثرية، نحجل حولهم، نتأمل وجوههم المحمرة من شمسنا، نشعر بأنّهم كائنات مختلفة، شقارهم مدهش وما يرتدونه لم نعهده على أجساد الناس عندنا. نتساءل ماذا يفعل هؤلاء السّذج هنا؟ وسط الخرائب التي لا نعرف عنها شيئًا.

معظمهم احترقوا بالشِّيب، وتغضنت بشرتهم، سيضيفون مدينة أخرى إلى ألبوم صورهم، ويعودون ليموتوا بهدوء في قبور نظيفة مرتبة. كل هذا لأقول باختصار شديد، لطالما لم أحب السياح، ولطالما فكرت أن السفر في نهاية العمر، هو خيانة للعمر.السائح أو الغازي أو الغريب، له شكل مختلف عن روح المكان، من السهل جدًا ضبطه مهما حاول التنكر. إذا كان صحيحًا أن يطلق عليَّ تسمية سائح في براغ فلا بأس، ولن أستطيع مهما حاولت نفي هذه الصفة المكرهة عني. لكن هدفي من الزيارة محدد وواضح ولا يحتاج إلى دليل أو مرشد، ولا أريد من أحد أن يشرح لي عن فرانز كافكا. إني أعرفه بمقدار ما سمحت لي ترجمة إبراهيم وطفي في ثلاثة مجلدات فاخرة، وما تناثر هنا وهناك عن شاعري المفضل، فأنا أعيد قراءة الحكم والمسخ أو التحول ومستعمرة العقوبات كل سنتين مرةً. على الأقل!.

كافكا ليس شاعرًا! صحِّح لي صديقي يومًا وأنا أقول إن كافكا شاعر، وساق لي تاريخًا من المقارنات البائسة بين الشعر والنثر.

لكنني لم أقتنع يومًا بأن هذا الرجل الذي حدَّق في العدم ونظر في

عيني الرعب، ناثرٌ فحسب، بل شاعرٌ من الطِّراز الجوهري، يحمل طاقة الشعر كما أفهمها، الطاقة الكونية الأكثر غرابة وقوة في تاريخ الإنسان منذ الأيام الأولى لاستخدامه اللسان.

كافكا يحمل تلك النظرة الصَّدئة إلى الروح البشرية، يحاول تجاوزها بجلخها على برداخ الحقائق العارية وهذه هي مهمة الشاعر، على ما أعتقد، وأنا أضبطه متلبسًا حين يتحدث عن الوظيفة التي تقوم بها الكتابة. **«على الكاتب أن يكون الفأس التي تحطم الجليد حولنا». فردد أحد نقاد أدبه بعد وفاته: كافكا هو الفأس الذي حطم الجليد من حولنا.**

أليس هذا ما يتوجب على الشعراء فعله؟!.

لماذا أستعجل الوصول إليه وأنا ما زلت أقبع في كنف الانتظار. هدأت قليلًا وقررت ألا أستعجل شيئًا، سأفكر كيف أقتل هذا الوقت الثابت ريثما ترحمني الطائرة وتصل إلينا.

كافكا على الشاطيء

أن نكتب يعني أن نهجر معسكر القتلة.

كافكا

فتحت حقيبتي، أعدتُ الأوراق والدفتر الصغير وتناولت رواية كافكا على الشاطئ المترجمة إلى العربية من قبل إيمان رزق الله، الصادرة عن دار الكلمة. اخترتها لتكون رفيقة الرحلة بسبب وجود اسم كافكا في العنوان، مفضلًا إياها على عشرات الكتب التي تنتظرني على الرَّف. في الحقيقة، كانت لدي الرغبة أيضًا بالاطِّلاع على منتج هذا الكاتب الياباني الذي بدأ يكتسح المعمورة، هاروكي موراكامي.

تابعت القراءة، وكنت قد اجتزت نصف الرواية سابقًا، الفصول الأولى قرأتها بمتعة حذرة بدأت تتناقص تدريجيًا كلما أوغلت أكثر. حتى وصلت إلى الجملة التي يمكن القول إن كل ما تلاها أصبح إثارة مجانية وإحساسًا بالحشو. الجملة التي جعلتني أغير جلستي وأكمل القراءة **بكل لؤم، تقول القطة ميمي للعجوز ناكاتا: العالم مليء بالعنف الرهيب، ولا أحد يستطيع الهروب منه. لا يمكنك أن تكون حريصًا بما فيه الكفاية، وهذا ينطبق على القطط بقدر ما ينطبق على البشر**. تابعت بعدها التصفح السريع على مدى ساعات الانتظار، للأحداث المسبوكة بعناية محترف حتى الصفحة الأخيرة.

مع بلوغي النهاية، صرخت بصوت أزعج جاري في المقعد المجاور، فرفع رأسه عن الكتاب الذي يقرأه، ناظرًا إلي شزرًا، وحرك رأسه مرتين، كأني تسببت بإخراجه القسري مما هو غارق فيه، فكررت جملتي همسًا: 630 صفحة، يا ويلك من الله يا ماراكامي!!.

رواية ضخمة لم أحصل منها إلا على شعور بالفراغ وضياع الوقت، حتى لو كان وقتًا سائبًا مثل وقت الانتظار. رواية كنت سأجدها رائعة يوم هربت من البيت وأنا في الخامسة عشر، بنفس عمر بطل الرواية الهارب من بيته. أعادت لي هذه الرواية ذكرى هروبي من المنزل. كلُّ مراهق أو مراهقة في هذا العالم، إمّا هرب أو يفكر بالهرب أو سيهرب ذات يوم.

في ذلك العمر ـ الهارب سريعًا ـ كنت سأحب رواية موراكامي، فهي تليق بالناشئين واليافعين (الاسم المخفف للمراهقين). وهنا لا أقصد التقليل من قيمة هذه الفئة الضَّالة المحتشدة بالهرمونات، على العكس أجدها شريحة ضائعة ومحرومة، ومتهمة، ومكروهة، عندنا يسمون من بلغ إنه قد بلغ سن الغلاظة، والأهم أن الأدب الموجه إليها أو يعرف كيف يخاطبها غير موجود بالعربية حقًا، لذلك كنت سأحب أن أقرأ كافكا على الشاطئ في ذلك العمر فهي تحوي توجيهات غير مدرسية للهارب من المنزل أو المفكر بالهرب من المنزل، للمراهق الذي تتبلور أناه الأعلى ورغبته بتغير العالم واكتشافه، والتعرف على عالم الجسد، والنتائج التي قد تحصل من هذا الهرب، ستكون رواية مساعدة للمراهقين المهتمين بشأن الأدب والجسد والقيم المثالية، وتشحذ المخيلة بالصور المغموسة بالخيال الجامح.

أذكر أن الهروب الأول كان في ذلك اليوم الذي سجل فيه «مناف رمضان» لاعب نادي جبلة هدفه السَّاحر، وعلَّق عليه المرحوم عدنان

بوظو بشكل جنوني، حين ارتقى مناف في الهواء وركل كرة وهي بارتفاع مترين أو أكثر على حدود منطقة الجزاء. لاعب قصير القامة تأتيه فرصة تاريخية، يرتفع أعلى من قامته ويتكفل الحظ بوضع الكرة على قدمه، ليسجل هدفًا لا يتكرر ولم يتكرر في تاريخ كرة القدم. لاعب نادي جبلة لم يفعلها ثانية، ولا بعد حين، لم نشاهد له شيئًا يذكر لاحقًا! يركض في أرض الملعب بتثاقل وبلادة، يتسبب بإهدار متواصل للفرص، يعيش ويقتات على تلك الركلة البهلوانية. ظاهرة يمكن أن نجدها في عالم الكتب والأدب، ابتداء من كولن ولسون وكتابه اللامنتمي الذي سمي بيضة الديك، حيث لم تفلح مؤلفاته اللاحقة بإعطائه أي اعتراف من النقاد والقراء.

وللإنصاف حول رواية كافكا على الشاطئ، أجمل ما فيها، مصائد ينصبها كاتب خبير بصنع الأفخاخ، لجعل القراء يلتهمون الفصول واحدًا تلو الآخر، علَّ شيئًا ما ينتظرهم هناك. والنتيجة صناعة يابانية بمواصفات صينية. ولكن هذه الموهبة الفذة تحسب لكاتبها.

الخلاصة، وجدت رفيقا لباولو كويهلو، فهذان الكاتبان من أذكى من حوَّل الكتابة إلى تجارة تدر أموالًا وحقلًا لاستثمار المتعة والجمال والرداءة. فباولو كويهلو تحتاج كل رواياته أن يكتب عليها رواية للكاتب صاحب (الخيميائي) حتى تتسوق، الأشهر ليس معناه هو الأفضل، والمسوَّق الجيد ليس معناه أنه كاتب ممتاز.

لكن فعلًا العفة عن التسويق تساوي أيضًا الرداءة، اضطر ولت وتمان أن يكتب باسم مستعار دراسة نقدية عن ديوانه أوراق العشب، حتى بدأ الاهتمام به. على الكاتب أن يعتني بتسويق منتجه دون أن يهدر ماء وجهه، تلك هي المعادلة الصعبة.

حاليًا إذا كنت أنت مسافرًا وجالسًا في قاعة الانتظار سأعترف تمامًا كم هي جيدة الثرثرة حول أي موضوع لكسر الزمن الذي لا يتحرك. لذا قبل أن أصعد إلى الطائرة، أريد أن أقول شيئًا، وأنا أقرأ أحد التعليقات على روايتي سرمدة، كتب أحدهم أنه شعر بالخديعة، وأنها ليست رواية وأنه أعادها للمكتبة، وتحسَّر على وقته الضائع. أحبُّ هذه النوع من القراءة وأمارسه وأتقبله بكل رضا، لذلك عذرًا من قراء ماراكامي وكويهلو. لا يغير رأيي من شهرتهما شيئًا. فيمكن أن تكون قد وجدت بأي رواية ما لم يجده غيرك. وهنا سحر وسر وجمال هذه الصنعة التي تسمى الأدب.

كل الآراء الشخصية والنَّقدية في قاعات الترنزيت لا يعوَّل عليها. فالمطار مكان ماكر والانتظار يشوش حصافة التروي والموضوعية.

آه نعم، إذن بهدوء لا بدَّ من البحث على معادل يكشف لي الوجه الآخر. وجدت دليلًا في رواية «قصة النَّورس والقط الذي علمه الطيران»، للكاتب التشيلي لويس سبولبيدا. يظهر الفرق بمجرد المقارنة كيف وظفت فكرة القطط التي تتكلم بلغة البشر لدى الكاتبين، سيجد من يقرأ الروايتين الفرق الجوهري، بين الأصالة الإبداعية عند سبولبيدا، وبين الظواهر الأدبية عند ماراكامي.

لقد كدت أشلِّخ الصفحات، حين وجدت شخصية تدعى جوني ووكر سفاح القطط الذي يأكل قلوبها، صور أراد لها أن تكون كافكاوية، فإذ بها شخصية مضحكة أقرب للتهريج، فتمنيت فعلًا أن ينتزع أحدهم قلب هذه الرواية ويجعلها تتوقف عن التصفح!!.

لم ينقذ كتاب ماراكامي من الرمي في الحاوية، سوى نداء إلى المسافرين بأن الطائرة ستكون جاهزة للإقلاع إلى براغ خلال ساعة ونصف بعد أكثر من نصف يوم من التأخير، فدسسته بالحقيبة.

الحقيقة التي يجب أن أبوح بها، أن من أصعب الأفعال التي يمكن أن أرتكبها، هي أن أقوم برمي أي كتاب، حتى لو كان المنطلقات النظرية لحزب البعث.

لكن ودون سابق إنذار نظرت إلى مكتبتي قبل مدَّة، وقررت أن أتبرع بسبعمائة كتاب منها، لكل من يطلبها، انهالت عليَّ الرسائل، استطعت أن أوصل لأكثر من ثلاثين طالبًا بعض ما كانوا يبحثون عنه، وشحنت الباقي إلى مركز ثقافي في مدينة إدلب، سعادتي لا توصف بوهب المكتبة، وأنا الذي كنت لا أفرِّط بكتاب مهما كان تالفًا، أعتقد أن مثل هذا الفعل حررني أيضًا، فماذا أفعل بكتب بعضها لم أفتحه منذ سنوات، أو تمت قراءته وانتهى، وبعضه لم يقرأ، نعم الكتاب الذي لا يقرأ في حينه نادرًا ما يمكن أن تعاد قراءته. وبالمناسبة تبرعت بهذا الكتاب لاحقًا «كافكا على الشاطئ» وكتبت على مقدمته، ستستمتع دون شك بالقراءة ولكن احذر من الفخ.

فتوجهنا إلى بوابة المغادرة بسرعة قبل أن نقع في كارثة عدم اللحاق في الرحلة.

أفكار متطايرة في سماء كحلية

ابدأ بما هو صحيح وليس بما هو مقبول.

كافكا

كانت الساعة حوالي الثامنة حين ارتفعت الطائرة، مودعين باريس ومتجهين مباشرة إلى براغ. مدينة كافكا. مدينة مليئة بالأضواء والحياة مثلما كان يردد ريلكه. ويستحيل نسيانها حسب مقولة كافكا الشهيرة «**لن تتركك أبدًا براغ، تلك الأم الصغيرة الظاهرة مخالبها**».

جلست في المقعد رقم 21 هذا الرقم الذي يرافقني عادة ويدعوني للتفاؤل، حلقت ليلًا وغالبًا رحلات الطائرات الرخيصة في أوروبا لها ضرائبها أيضًا. من الداخل الطائرة أقرب إلى باص سكانيِّ، الاكتظاظ والروائح وضيق المحل وكل الخدمات بدون أي وسيلة ترفيه لتمضية الوقت، يعني عليك إما أن تنام أو تحدق بالزمن الطائر الثقيل. أو تجد ما تشغل نفسك به، فأفتح دفتر الملاحظات وأكتب:

أفضل طريقة للانتظار هي المشي

ولكي أمشي في هذا الثبات الجوي الذي لا يتزحزح، كان علي أن أفكر بشيء يملأ الوقت ويثير اهتمامي. شيء أثقل من المعتاد يحمل سمات الجدية، العقل البارد لتجعله يستفز ويمسك الزمام وإلَّا اندلقت

عاطفتك وسببت حالة من الهلع في الطائرة. لذا عليك بإلهائه بالأفكار الثقيلة، فكان السؤال هل كافكا شاعر أم ناثر؟.

في كتابه المدهش قرعة جرس لكائن جميل، دار الجمل ألمانيا، أورد الكاتب السوري رفيق شامي الذي أصفه دائمًا بأنه كتيبة من الكتاب، جزءًا من رسالة كنت بعثتها له حول النثر والشعر.

فحين أصدرت مجموعة تحتانيات عام 2010 أصريت أن أبقي ما كتبته خارج هذا التصنيف الحاد شعر أم نثر، فقلت كما يفعل الكثيرون إنها نصوص.

رفيق كان صادقًا وشهمًا في نقده لا يرحم ولا يجامل. أخبرني أن ما كتبته في تحتانيات هو أقرب للعراضة الشامية، وأنه سيجد صعوبة على أي رف سيضع مجموعتي مع الشعراء أم النثار، والأهم همس بلطف: دعك من الشعر أنت ناثر.

أجدها مناسبة وأنا محلق في الجو، أن أعيد ما نشر في كتاب قرعة جرس لكائن جميل ص 166. وهو جزء من المراسلات الأغلى على قلبي التي أحتفظ بها مع رفيق.

قلت له:

«تمت خيانة الناثر والمنثور، لصالح الشاعر والشعر، فالوزن واحد، والمصدر واحد لكلا الصفتين، هو فُعْل، نثر شعر.

فنقول قال الشاعر، وجاء الشاعر، وعبَّر الشاعر بينما ينزوي الناثر تحت لواء اسم فضفاض، يتسع لجمعٍ غير متجانس فيدعى كاتب.

يمكن للكاتب أن يحمل العديد من المعاني، فرضًا: نذل بصفة مُخبر

(كاتب تقارير أمنية) مُقعد حرب على باب محكمة (كاتب عرائض) مُقسم على كتاب مقدس أن يكتب بالعدل (كاتب عدل) صحفي استكتابيات رخيصة (كاتب صحفي) روائي لم يفلح في مهنة سمسار عقارات (كاتب روائي) متحدث بارع وبإطلالة زاهية على الفضائيات، يعرف عليه «بستراب» بـ (كاتب ومحلل).

من هنا يبدو الناثر غائبًا والشاعر حاضرًا، فلا أحد يعرِّف على الكاتب بأنه ناثر، بينما يمكن لأحدهم أن يمتهن مهنة لها بريق تسمى الشاعر».

إذا أردت التوسع أكثر، ربما أضيف الآن، لم تستطع المؤسسات احتواء الشاعر، فعملت على تعويم الشعر و التشويش على رسالته وقدرته على الهروب الدائم من القفص.

الشعر ديوان العرب، والشعر هو أحد مصادر اللغة. ما أشكل عليكم في القرآن الكريم التمسوه في أشعار العرب، حديث منسوب للرسول يذيل بالصحيح، وآية تخص وتنص على أن من يتبع الشعراء هم الغاوون ولكن الشعراء لا أحد يقترب من مملكتهم، لم تستطع المؤسسات إيقافهم، فشوشت على من يتعاطى نتاجهم. ليست هذه الرحلة بمقام البحث عن خطورة الشعر، إنما للفت النظر.

سيبدو الشعراء كأنهم كابدوا الكثير من العناء عبر التاريخ. ولكن إنصافًا وأنا منحاز لهم ولا أكتب الشعر، ولا أقرضه، أن أقول إنه في الثقافة العربية، تم تدمير الناثر تمامًا.

ما وصلنا من إرث العرب النثري بالجاهلية يكاد لا يذكر. يقول المصنفون: إنه لا يعدو ثُمن ما كُتب من النثر الأدبي بأنواعه منها: الخطابة، القصص، الأمثال، الحكم، الوصايا، النثر المسجوع. وهذا

الأخير من النثر في العصر الجاهلي أولاه المستشرقون من العناية أكثر مما يستحق. يقول المستشرق بلاشير في كتابه تاريخ الأدب العربي: «**إن سكان المجال العربي عرفوا، دون ريب نظامًا إيقاعيًا تعبيريًا سبق ظهور النثر العربي، ولم يكن هذا الشكل الجمالي هو الشعر العروض، ولكنه نثر إيقاعي ذو فواصل مسجعة. ويضيف: أنه من الممكن أن يصعد السجع إلى أكثر الآثار الأدبية عند العرب إيغالًا في القدم، وبالتالي إلى ماضى أكثر غموضًا. فهناك من يؤكد بأن المسجوع كان المرحلة الأولى التي عبرها النثر إلى الشعر عند العرب**».

فإذا كان الشعر هو الذاتي يعني المزاج والنفس والروح والماورائيات، فإن النثر هو الموضوعي، التاريخي والمؤكد وحمَّال الحقائق.

البيانات التي أثرت في تاريخية الإنسان هي من النثر، ابتداء من نشيد الأنشاد الكتاب المقدس، مرورًا بالقرآن وليس انتهاء بالبيان الشيوعي، أما الشعر فكان خارج الزمن دائمًا. في الأزمات يتحول الشعر إلى حدث هامشي بينما تصبح خطبة رجل الدولة وإن كانت خالية من أي نوع من أنواع البلاغة هي الأهم.

النثر يوثق «الآن»، الشعر لا يعبأ «بالآن». الشاعر متهم بالهروب من الواقع، والمبالغة، وحتى العرب قالت: أعظم الشعر أكذبه، النثر متهم بالواقعية، والجمود ومقاربة وتحريض الملل، نحن أمام وسيلتي تعبير، جاء بعض النقاد والمتذوقة ليقولوا إن الأصل هي الشاعرية، المخزونة في الكلمات وليس الإيقاع والقافية والوزن ما يحدد قيمة ما يكتب.

ما يهمني فعلًا في هذه الرحلة شاعرية الكلمات، وشعرية النص، أي: قدرته على تجاوز واقعه وراهنية زمانه ومكانه. إنّها الشاعرية الملهمة

للإنسان في كل مكان وأيّ زمان، وإلا ما الذي يجعلني أجمع أربعة ممن ابتكروا كلمات أحببتها معًا في رحلة واحدة، فإذ بي من خلال هؤلاء، أفتح حدود لغتي ومخيلتي للجهات الأربع، وأصبح متحررًا من جوازات السفر.

نعم أحبُّ الشعراء واللغة والثقافة وهي جزء مني لا أدينه ولا أسخر منه، ولولاه لما وجدت القيمة لا للحبِّ ولا للحياة ولا للموت أيضًا.

الشعراء يعيشون على الشَّفير، يمكن لمن لا يخلص النوايا باتجاههم أن يسقط قبل أن يصلهم، فلا يكفي معرفتهم بل الاستحمام بماء الشعر العظيم، والقبض على كتلة اللهب التي سرقها لهم بروميثيوس وما زالوا بها يحترقون.

حفَّار الكلمات، شاعرية كافكا

كنتُ أسمع بين الحين والآخر صوتًا طالعًا منِّي يشبه نشيجًا عابرًا لقطة صغيرة..

كافكا

الطائرة تحلق ليلًا، وأطلب بنادول للمرة الثانية، وأنا أسقط ضوء السقف الخاص بمقعدي على الدفتر أمامي، وأحاول كـ (الانتظار الرتيب للطيران، بالجدية اللازمة، للأفكار التي تأتيك وأنت في الأعلى. شاعرية رياض، وشعرية رامبو، وكثافة نثر كافكا، كل منهم، على علاقة وطيدة مع خزان الكلام المتعطش للقول. من السهولة تحويل البلاغة إلى نبوءة، بشرط تخليصها من الشعر وغمسها بماء الرؤية إلى الماورائي، لكن هذه القصدية تحول الكاتب إلى ناشط له أهداف أخرى ليست بالنبل الصافي. فهو يؤسس لمشروعية القيادة، لدين أو حزب. وبما أن شعرائي الطيبون كانوا مشغولين بكشف النقاب عن الروح العظيمة للإنسان والتبشير بها بلا أتباع، والقتال من أجلها بلا سلاح، تبدو مهماتهم كبشر أمميون هي المهمة الأكثر فشلًا، لكنها الأعمق أثرًا في تاريخ الإنسان.

ما كتبه رياض بإمكانياته كان طليعيًا، مدهشًا، ومؤثرًا. البساطة الآسرة الخالية من رنين المعاني الكبيرة، الحرية ككلمة مجردة، تخرج من كل صفحة، تنعقد مع كل برعم في شجرة قصيدته، الحب الشخصي جدًا، وتعويمه لتعميمه، والألم من الفقر والسجن، والتغيب، وخذلان

الأصدقاء، والعمل بشرف للقمة العيش، ومزج الوجع العام بالخاص، وتطهير القصيدة من الحزن السوري التقليدي. ضخ الحياة بين متنافرات، ورسم الصور الناصعة في خلفيات مغبرة ومعبَّدة وغارقة في الجرح والأهم أنه امتلك اللغة وهو شاب صغير، مما جعله يلتقط أفكارًا مدهشة، ويحول النزق الشاب إلى دفقات من الدهشة لا تنتهي.

وهذا الأمر بالنسبة لرامبو، قيَّض له أن يلتقط أعاصير داخله وهو دون العشرين، بمزيِّة فريدة هي قدرته على امتلاك اللغة. فمعظم المراهقين، لا يعرفون كيف يصرفون الصواعق والعواصف التي تقدح في أجسادهم وتلمع في خيالاتهم لا تستطيع اللغة أن تحتويها، فتخرج القصائد والأفكار بصورها الممسوخة.

أمّا الحديث عن رزين مكتمل الحضور مثل كافكا. فهو مختلف نوعًا ما.

لم يتنبأ كافكا، وإنما رأى ما هو موجود هناك في قاع الإنسان. كشف أن علاقات الإنسان والقوانين الناظمة لتطوره، وبحثه عن سعادته وقيمه وفي أسباب وجوده ستؤدي بالضرورة إلى خلق الضراوة القاتلة للوحدة، والافتراس، والأوجاع الرهيبة التي لا تحتمل. فاستخدم الشعور بالذنب، كالمفرش الأساسي لشخصياته المنحوتة بإزميل فنان ماهر.

من هنا كان كافكا يؤدي مهمة الشاعر في الإضاءة والكشف، أكثر مما هو عليه كقاص أو روائي. يعمل على تحليل الظواهر وتشريح مملكة الإنسان الداخلية وتوصيف حدوده في الجغرافيا والتاريخ. فمن المساحات السرية للنفس الإنسانية، والعوالم الجوانية المستعصية على القول، ينبع الشعر. وتقتات الموسيقى بقدرتها الملساء على التسلل من دون الحاجة لقوانين الكلمات، فتصبح هي الأقرب للتبلل بالمادة الخام للغريزة والسمو والذاكرة الجمعية والفردية، فتختلط بهم وتخرج لتتحول إلى أصوات.

ويصف كونديرا بدقة شاعرية كافكا في كتابه الوصايا المغدورة ترجمة معن عاقل، إذا كنت أتمسك بتراث كافكا بمثل هذه الحماسة، وإذا كنت أدافع عنه كما لو أنه تراثي الشخصي، فبسبب هذا المثال الرائع من الاستقلالية الجذرية للرواية (للشعر الذي هو الرواية) بفضلها تحدث فرانز كافكا عن شرطنا الإنساني على النحو الذي تجلى بعصرنا، بطريقة لا يستطيع أي تفكير اجتماعي أو سياسي أن يحدثنا بمثلها عنه.

من هنا كان كافكا شاعرًا أكثر مما هو روائي. بدا هذا الاستنتاج مريحًا بالنسبة لي، فطوال الوقت وأنا أحاول أن أبرر اختياره في قائمة رحلتي، من دون أن أعرف جوابًا فساعدني كونديرا، وفهمت بعد تأمل استمر يعمل منفردًا في داخلي لسنوات، لماذا أستشعره شاعرًا.

كانت الساعتان من باريس إلى براغ كفيلتين بأن أعاود ترتيب الأوراق، والاستعداد الهادئ للقاء.

نعم عليّ أن أنجز مهمتي، وأقرأ بعض من قصائد الرياض الصالح الحسين على قبر كافكا وأكتب له رسالة أودعها القبر وأمضي. هل هذا جنون أم ترف؟ في الحقيقة لا يهمني. ما أريده فعلًا أن أزور قبر هذا الرجل، وأجعل صوت رياض يتلو على مسامعه الساكنة، هذه هي الغاية ببساطة وبدون تكلف. أمر خططت له وها هو بمتناول اليد. بدأت أحضِّر أي من القصائد الخاصة برياض الصالح الحسين ستكون قريبة من كافكا.

ماذا لو تسنى لرياض نفسه القيام بهذه التجربة، أي قصيدة من قصائده كان سيختار ليتلوها على قبر كافكا؟ بدأت أراجع القصائد مرة تلو أخرى وبهدوء بدأ ضجيج طائرة سكاي يورب الاقتصادية، يصيبني بالصمم، ويثقل على عقلي. وصارت عيني تدمع من الألم، ورأسي يكاد ينفجر. ازدردت الحبة الثالثة من البنادول القوي، وألحقتها بعبوة ماء ب3 يورو. وقلت في نفسي: هل يحق للشعراء ما لا يحق لغيرهم؟.

شفير الشعراء

الكتابة انفتاح جرح ما

كافكا

نعم يحقُّ للشعراء ما لا يحقُّ لغيرهم، فهم من يهيمون ليقطفوا نرجس الكلام من حواف الوديان السحيقة، يحطبون الأشجار العالية بمناجل الغيب، ويقطبون أفواه جحيم العاطفة بخيوط من ضوء بكر.نعم يحقُّ للشعراء ما لا يحق لغيرهم، يدوزنون الصباحات على مقامات كمنجاتهم، يجدولون انصياع السواقي لمجاري نهر الكلام فيكسوهم السعف، وهم يرفعون قامات النخل.

يقولون بالحلول، والانشداه، ويبذخون وهم ينخلبون في جسد الموت ويخرجون منه أكثر رقة، يراودون شعاعًا على ظلِّه، ويجلخون سواطير الاستعارات ليمزقوا لحم السّماء، ويعلقون الليل من عرقوبه، يبيعونه، خاليًا من العظم، والدّهن، والزَّنخة، صافيًا إلا من الكوابيس والنبوءات. نعم يحقُّ للشعراء ما لا يحق لغيرهم حين يتألم التراب، يرشُّون عليه دعاسات حبيباتهم، يطببون الجراح بالفواح، ويعالجون آلامه بندف القبلات على أديم الأرض، وحين ينسدر البحر، يحرسون الأمواج من عته الشواطئ.

نعم يحقُّ للشعراء هذا وأكثر. ولكن أيُّ شاعر من يحق له ذلك؟ هو

الذي حضر يومًا مجلس هولاكو. وقد ارتدى حزامًا لامعًا، وارتدى أبهى حلُّة في الوجود وطلب من الشعراء والحضور أن يثمنِّوه، كم يساوى هولاكو لديكم؟. جادت القرائح، تقدم ذبائح الكلام، تهدر حشمة الشعر تهتك كرامة اللغة ولما وصل الحديث إلى الشاعر الشاعر. قال: أشتريك بعشر فضيات، ضحك السفاح ورد: عشر فضيات لا تساوي ثمن بكلة حزامي هذا؟ ردَّ الشاعر: إنما أنا أشتري فيك بكلة حزامك، أما أنت فلا تساوي شيئًا، فقط لمن يستطيع أن يجهر لحظة الحقِّ، لولي من أولياء الغباء والموت والأمر. أنت لا تساوي شيئًا، هو من يستطيع أن يقول أكثر من الجميع، الحقيقة والحقَّ دون الخوف من الاستحقاق.

في سوريا لقد صمت الشعراء، لقد صمت الشعراء لقد صمت الشعراء. لذلك أعود إلى رياض الذي تكلم في زمن الصمت. ولذا صار حرًّا بعد موته ليقول قبل ثلاثين عامًا ما يحدث اليوم.

أما من ظنُّوا أنهم تحدثوا، لقد نثروا الهراء، الهراء إياه المنثور بكثرة على ضفاف الجاموقة.. ألا تشتمون روائح كلماتكم؟.

كتبت يومًا نصًا سأورده هنا. للاستئناس بحضور الشعراء الباهر في حياتي وأثرهم بها. في أحد أيام الاحتفال بيوم الشعر العالمي المصادف يوم 21 ـ 3 من كل عام.

يجيء الشعراء، ليعوضوا البعيدين، ويصنعوا من رائحة القهوة وشغف الريح ورائحة إبط الحبيبة، ملمسًا فذًا مخرمشًا بالدلالات.

هل يستحقُّ الشعر يومًا الاحتفال؟ هل يستحق الشعراء يومًا ليتوقفوا عن الإنشاد والنشيد، ويتأملوا قديسيهم وصرعاهم، ليدفنوا شيوخَهم بمهابة القول الرجيم؟!.

إنها بلادٌ تُصكُّ بختم شاعر. إنها أرضٌ تُطوّب لِحلمِ شاعرٍ، ونساءٌ يتعمّدْن ببحور الشعر، ويتشمّسنَ عارياتٍ طازجاتٍ تحت ضوء نائسٍ من النثر الشّفيف ولسعاته الهائجة على أعلى النهدين. إنها البلاغة، يحترس الشعراء منها ومن فخ الملل والمثل والأمل.

يشعلون النار، مذ استهدوا إلى سرِّ الآلهة، وسرق لهم برومثيوس النارَ من القمة، وهم يحطبون الأشجار ليتخلصوا من برودة العقل، وهم يُفَخِّخون غيمةً عابرة لتمطرَ نبيذًا وزرافاتٍ وأزرارًا من قمصانَ السماء مفتوحة. وهم يلتقطون الزفيرَ الخارج من تجويف ثقب في القلب، ويعجنوه ليصنعوا منه سُبْحاتٍ يعدّون بها أسماءَ الشاعر الحسنى.

فهل يمكن أن نذكر «تشيلي» بلا «نيرودا»؟ هل يمكن أن نمرّ بتركيا بلا «ناظم حكمت» و«أورهان ولي»؟ هل لدى أميركا من هو أحق بالمحبة من «والت ويتمان»؟ هل نستطيع النظر لوجه فرنسا دون أن نرى تشطيبات «أرثر رامبو» وسهد «لوترِيامون»؟ كيف يمكن أن نتحمل ثقل دم تاريخ ألمانيا لولا «غوته»؟ وصقيع إنكلترا لولا «ت. إس. إليوت»، وهو يوزع المهمات على الشعراء لكي يعيدوا الشعرَ للعالم باستمرار؟.

شعراءُ ـ بإبرهم ـ يقطّبون فوَّهات الجحيم ويسدون فجوات الريح والروح بالأناشيد... فيَا لها من مهمة!.

ألم يهتدِ أهل العراق دائمًا لبغداد ببوصلة السيّاب والبياتي وعاميّة مظفر النواب؟.

ألم يضخّ مالك حداد ـ الذي عمل كقلب لا كشاعر ـ الدماءَ في جسد الجزائر، وهو يصيح: «**الشعر مهنة يفقد فيها الشاعر الريش ويبقى يطير**».

ألم تقطن تونس طوال عقود تحت سقف بيت من الشعر لشاعر واحد، مات قبل الثلاثين وهي تردِّد:... لا بدَّ أن يستجيبَ القدر؟ وقد استجاب.

ألم تكن غيوم أنسي الحاجّ، هي الغيوم الوحيدة الصالحة للهطول كلما انقطع المطر عن بيروت؟. ألم يذكر «ميشيل طراد» حارس قلعة «بعلبك» طوال أربعين عامًا السياحَ وأنصافَ الشعراء والمتشاعرين إنَّ مسمارًا في«بسطار» شاعر أغلى من أثمن جوهرة (بهالكون)؟.

أوليس قباني والماغوط ورياض الصالح الحسين هم من ستنحت دمشق يومًا أسماءهم على جبينها؟.

أو ليس قاسم حداد، هو البحر الثالث في البحرين؟ وأمل دنقل هو الهرم الأكبر مكتوبًا عليه لا تصالح؟ محمود درويش ومعين بسيسو وإبراهيم طوقان، هم من ائتمنهمُ الناس على فلسطين؟.

أو لمْ يكونوا مُحقين في الزمن القديم، إذا ألقوا القبض على الشاعر أن يربطوا لسانه خوفًا من لعنة ستدمغ أعداءَه للأبد؟.

وإذا وُلدَ شاعرٌ في قبيلة احتفلوا به كفارس، وإذا مات كان شهيدًا؟ ألم تُنَصِّب إسبانيا، «لوركا» شهيدًا للأبد؟ وترقِّص الخيول على فوران دمه؟.

في يوم الشعر العالمي، نبحث عمّا تبقَّى من الشعر العربي بين نفايات الفضائيات، فلا نجد إلا أن نستجيرَ ببذاءة مظفر النواب، نستضيء بشموعه في عصر «البروجكتورات» الباهرة وهو يقول: «بعضكم سيقول: بذيئًا، لا بأس أروني موقفًا أكثر بذاءة مما نحن فيه».

إنهم الشعراء يتبعهم الغاوون.....

أيقظني ضجيج المسافرين وهم يصفقون لنزول الطائرة! نعم، في

الطائرات الاقتصادية الخالية من مقاعد الدرجات الأولى والأعمال، مازال بعض المسافرين من كبار السن، يرتدون بدلات أنيقة حين يسافرون ويصفقون للطيار حين يعيدنا للأرض سالمين، غانمين صداعًا عنيفًا وإحساسًا سيئًا من رائحة التونا والبيض المنبعثة من مطبخ الطائرة.

أخيرًا على أرض التشيك، الخروج السريع. أرتمي في التكسي، عليَّ الآن أن أجد فندق «أنتيكا» الذي حجزت به بالسابق.

قطعت السيارة الشوارع النظيفة الخالية، في المدينة الجاثمة بمهابة ورسوخ لم أرَ منها سوى السكينة اللطيفة، والنميمة التي تتبادلها الأبراج المئة في سماء غارقة بالصفاء النادر.

في قلب الحسرة

كلما عرف الآخرون عن معاناة المرء زادت معاناته، وإن لم تزد أصبحت أقل طهارة.

كافكا، رسائل إلى فيليس

النوم مقتلة الوقت، يا إلهي كم أكره النوم، أستيقظ باكرًا، استحم بماء ساخن، أتنشف بسرعة، أحتسي كأس الشاي، ألتهم الفطور الخفيف كل هذا بأقل من عشرين دقيقة، فكل ثانية ثمينة ولا مجال للخدر والكسل، وكماليات الأكل والشرب.

أنتصب أمام الرسبشن بكامل استعدادي، وتحمسي للذهاب إلى المقبرة اليهودية.

قلت: أنجز مهمتي باكرًا، بزيارة القبر وأتفرغ بعدها للتفاصيل.

زوّدني الموظف بخرائط من كل الأنواع. إحداها خريطة خاصة بأماكن كافكا في براغ، متحفه، منزله الذي ولد فيه، منزله الذي عاش فيه، حيث كان يسبح مع أبيه، القصر الذي كتب عنه، جسر كارل حيث نهاية رواية الحكم، المقهى الذي كان يرتاده والمسمى باسمه، المقبرة التي دفن فيها. كانت الخريطة مفصلة لي تمامًا فازدادت حماستي ودهشتي. لكن الموظف أضاف معلومة واحدة أجلت كل شيء إلى الغد. اليوم هو

السبت، يوم العطلة الأسبوعية لدى اليهود، وفي هذا اليوم لا تفتح المقبرة أبوابها حتى للموتى!!.

شيء من الخذلان غير المتوقع، إذًا لا كافكا اليوم، فخرجت إلى براغ بدون مشاعر الذنب، فأمامي اليوم الأول للتعرف عليها، وأرفع سقف التوقعات مما قد تعطيني إياه هذا المدينة. أول ما خطر لي كيف تلفظ براغ أهلها يقولون «براه» وتعني هذه الكلمة باللغة التشيكية الحسرة.

أنا إذن في براغ، ومعنى الكلمة بالتشيكية القديمة الحسرة أو الندم، وحيثما تقع عيناي يتملكني شعور جارف بها، فالمدينة مسجلة كاملة على قائمة التراث الإنساني، واحدة من أجمل مدن العالم كما تقول التصنيفات السياحية، قلب أوروبا النابض بالجمال، حتى هتلر المُدمر، أبقاها سالمة تقريبًا ولم يحل عليها جامَّ غضبه حين اجتاحها بلا عناء.

الحسرة التي تودعها بك مدينة بهذا الجمال، ولا تعرف لماذا؟.

الحسرة التي يولدها تناغم هذا الفضاء المرتج بالاكتمال العمراني، والفيض الربّاني للخضرة والماء والحسن من الوجوه.

الحسرة علينا وعلى تاريخنا، على عمال النظافة ومقارنتهم بهؤلاء الذين يعيدون ترتيب صباح المدينة، بعد ليلة الجمعة الصاخبة. كيف يضجون بالشقار والوقار والنظافة. عامل النظافة هو أنظف الكائنات قاطبة.. يا للهول من هكذا حسرة!!.

الحسرة على رياض صالح الحسين، وهو يموت قبل بلوغ الثلاثين، والحسرة عليه كيف تم الاحتفاء به بعد موته، وبينما في حياته كانت تقهره أجرة الغرفة التي يستأجرها.

الحسرة على مدينة عريقة مثل دمشق، وهي تتحول إلى مدينة منهوبة مسلوبة حسرة إضافية أكتبها الآن، بعد انقضاء الرحلة على بلدي سوريا، التي تُدمَّر، وتُحتَل وتتحول إلى رماد، الحسرة عليك يا بلد. ومن ثم الحسرة على الذات كم قهرتها البديهيات؟.

أمام هذه الحسرات الصَّباحية المليئة بكل أنواع الانشداه، كان لا بدَّ من الجلوس على طاولة صغيرة لمقهى صباحي، وطلب قهوة قويَّة، أقوى قهوة ممكن اجتراعها، فقليل من النعاس يكفي أن يجلب الحسرة، ويجعلني أخسر هذا الصباح المنتظر. وأنا قبل شحَّادة براغ وبنتها في الشارع، والساعة لم تبلغ السّابعة صباحًا بعد.

طلبت «تربل» إسبريسو. وبهدوء المتحسر العاثر، ناظرت الساحة المقابلة، لأعرف لاحقًا أنني أجلس في ميدان «فاتسلافسكي» تم تشييده بعظمة في عام 1348 على يد الملك تشارل الرابع عند تأسيسه المدينة الجديدة. شهد هذا الميدان، أحداثًا لا تتكرر كثيرًا في التاريخ. منه أعلن قيام جمهورية تشيكوسلوفاكيا، عام 1918، في اتحاد كاذب بين التشيك والسلوفاك. ومنه إعلان انتهاء الحرب العالمية الثانية وانتصار الحلفاء رسميًا عام 1945. وبه أحرق طالبان اسمهما الأول جان، (جان بالسوتش، وجان زيجتيك) نفيسهما احتجاجًا على الغزو السوفياتي الذي سحق ربيع براغ.

وفي عام 1989، تجمع الناس لينهوا الفصل المرعب من حكم الدكتاتورية، الشيوعية ويعلنوا الطلاق الناعم بين جمهوريتين مختلفتين لا يمكن أن يشكلا أمة. وبين التأمل والامتلاء، فتحت الأوراق التي بحوزتي ووجدت الاسم الغريب من جديد، هذه المرة لم أستطع تجاهله، كيف

يمكن أن تكون في براغ وتتجاهل فلاديمير هولان. وخاصة حين يؤجلك فرانز كافكا إلى الغد.

رشفة تلو أخرى بهدوء من يجسُّ المدن من ساحتها جلست أنهي فنجان قهوتي وأفكر، لماذا لم أجد هذه الصور في روايات كافكا؟ فهذه المدينة التي تأسست عام 870 للميلاد، ثابتة المشهد والجمال منذ أكثر من مئتي عام، كيف لم تتسرب إلى حبر فرانز ولو من باب الوصف الجمالي؟. لم يحتل الجمال خلفية لأي مشهد من مشاهد قصصه ورواياته. بل اكتفى بالقلعة الرهيبة وجسر الموت، كيف لم تمسه بجمالها، بل على العكس مدته بكل أنواع الكوابيس والجواثيم التي تطبق على حلم الإنسان. لا يلوح منها، سوى القصر، ومركز البريد، والنَّهر والجسر والقلعة.... بدا لي هذا السؤال يحيل إلى ثقافة الأمكنة، التي تؤثث أعمال كبار الكتَّاب في العالم.

وتذكرت قائمة للمدن التي اندمغت بكتابها، واندمغوا بها. فقد أصدرت مكتبة ألمانية شهيرة سلسلة من الرِّوايات العالمية تحت عنوان: «المتروبول تروي قصصها» وكتبوا في مقدمة السلسلة. إن دار نشر ألمانية كبرى قامت بالتَّقصي والاستفتاء لدى جمهورها، من هو الكاتب الذي أثَّر بكم وجعلكم تزورون مدينته قراءةً؟.

«أول قصة أتت كما يتوقع الكل من نيويورك لكن الدهشة كانت ـ في ألمانيا كبيرة جدًا ـ كما تقول دار النّشر ـ أن تؤخذ دمشق كثاني أهم المدن في روايات العالم. قبل بكين وباريس وحتى برلين. والسبب رواية الوجه المظلم للحبِّ لرفيق شامي، ورفع نجيب محفوظ بروايته زقاق المدق القاهرة إلى المرتبة التاسعة».

سيكون حضور رفيق شامي بسيرة أقرب للأسطورة، وكتب فاقت الخمسين ترجمت إلى أكثر من ثلاثين لغة، سكب في معظمها روح دمشق العظيمة العصيَّة عن النسيان. في الثقافة الألمانية. بينما تدفع مدن مزدهرة وقادرة الملايين من الدولارات لشركات الإعلان والعلاقات العامة للترويج لنفسها، وتبقى نسيًا منسيًا حين يتمُّ الحديث عن المدن الجوهرية في تاريخ الإنسان. لو أنّ المدن القادرة تدرك ما يمكن أن يفعله كاتب واحد حقيقي يستطيع أن يلتقط روح المدينة، لاستثمروا في الثقافة وتعاملوا معها بجدية أكبر.

هناك مدن لا يمكن فصلها عن كتابها، دبلن وجيمس جويس، محفوظ والقاهرة، باريس وهيغو، روما مورافيا، دمشق ونزار للعرب ودمشق ورفيق شامي للألمان..إلخ.

لكن براغ تستجيب لأدب كافكا، كديكور شديد الثَّراء لشخصياته، سينوغراف مذهل لا يحتاج العناء للمشي، والوصف، والغزارة البصرية بأقل قدر من الكلمات يتحقق المطلوب من المشهد، في الحكم من غرفة واحدة ونافذة وجسر يكفي أن تتشكل معالم القصة الطَّويلة، في رواية القلعة يشعر كلُّ من يقرأ بسلطة وجثوم القلعة على روح المدينة، في المسخ سيبدو البيت شديد الألفة لكل من عرف بيوت أوروبا ومعمارها وكيف توزع الغرف به على القاطنين، من قاعة الطّعام إلى غرفة الأولاد التي علق بها (غريغوري سامبا) وقد تحول إلى حشرة. في براغ المسكونة بخاصية جمال مدمر وخوف عظيم وألف أسطورة تروى على مدِّ البصر سيكون جمالها مجيرًا لخدمة الرُّعب، وطبيعتها ليست نزلًا لإقامة رجلٍ مسلول مسكون بكل أنواع الكوابيس التي اختزنها الإنسان عبر العصور. بل فضاء متناقض لتعرية العالم، جمال الجسد للمدينة وعمرانها، قبح الروح للساكنين والقابعين في السجون الداخلية فيها.

من يقرأ يوميات كافكا الشديدة الاعتناء بالتفاصيل كلها تعجُّ بوصوف لدواخل، أو لهيئات، أو لأشخاص. بالطبع لا تهمل الأفعال المعتادة والرتيبة كالنّوم واليقظة، الكتابة والإمساك عنها. البرد وتوقيد الذات قبل إحراقها. يفهم كافكا بعمق المدن كشخصيات حيَّة وكتب بمذكراته عن تجربة صديقه (لقد كتب ماكس عن باريس على نحو رديء، من دون أن يتمكن من الوصول حقيقة إلى حريّة الوصف الصادق، التي تحرر قدم المرء من التجربة) ص 94 مذكرات فرانز كافكا، ترجمة خليل الشيخ، هيئة أبو ظبي للثقافة.

هكذا يفهم توثيق المدن، وصف صادق يحرر قدم صاحبه من تجربته، يحشد تجربة المدينة نفسها. بدت هذه الملاحظة مثل وخز إبرة الصّبّار في العين. فكلما رأيت شيئًا يثير الفضول، يصبح عليَّ أن أتلقاه بكامل صدقي الداخلي، وحين أكتبه أحرره مني. على كل هذه أمنية لن أستطيع أن ألتزم بها ولكن سيكون لي شرف المحاولة.

براغ لم تكن حاضرة في أدب كافكا، وليس هو من يستطيع أن يرشدك إليها، استطاع تجريدها من جمالها الشديد ليكتب المضاد تمامًا. لم تكن مدينته، ولم يكتب بلغتها الأصلية. فهو بقي يكتب بالألمانية وبنفس الوقت كان يقول عنها: **لهذه الطفلة براغ مخالب من الصعب أن ينتزع المرء نفسه منها.**

إذا كان لك أن تنحي كافكا جانبًا ريثما تصله، وتركز على المدينة لتقولها أو تراها، لتمشي بها أبعد قليلًا من سائح فائح بالفضول المهذَّب، عليك إذًا أن تجد شاعرها الحق، ابن رحم لغتها.

فلاديمير هولان
شاعر الفجيعة البراغية

صراع الإنسان ضد السلطة هو بالدرجة الأولى
صراع الذاكرة ضد النسيان.

ميلان كونديرا

كان علي أن أستعين بشاعر تشيكي، يخفف ثقل انطباعاتي، ولنقل بدلًا من الحشو وتقديم مادة يمكن أن يقدمها مكتب سياحي أفضل مني بكثير، لأتخيل أن أتجول برفقة شاعر يحدثني عن الإنسان قبل المكان في هذه المدينة المكتظة باللقى، فكان فلاديمير هولان. توفي عام 1980، وفي روحه تتفصد جراح الحرب العالمية الثانية، والاحتلال السوفياتي لوطنه. ولد فلاديمير فيها وعاش طفولته خارج براغ، عاد إليها ليدرس ويبقى ويموت منفيًا أعزل. تُوِّج سنة 1968 كمصدر لروح الشباب الذي سيعمل على تفتح ربيع براغ قبل أن تأتي دبابات تي 52 الروسية وتسحق الورد في بتلاته الأولى. ترشح لنوبل للأدب، وشبه بملارميه التشيك. تعرض للملاحقة والحصار، وبقي يجوب شوارع براغ بروحه ملقيًا بها تلك المفخخات المرعبة لسلطات القمع. قصائده المليئة بالألم مصوبة باتجاه مكامن الفجيعة، بدقة الشاعر المفجوع بمصيره ومصير الإنسان الذي يحيا معه.

كان علي البحث عن صور «جوزف كوديلكا» الفوتغرافي الأشهر في عموم التشيك الذي اشتهر بصوره عن قمع ربيع براغ، تعرفت على صوره من خلال معرضه عن جدار الفصل في فلسطين المحتلة. أما بالنسبة إلى عمله الأخير وهو بعنوان «الجدار» الذي يضم صورًا بانورامية فالتقطها على طول الجدار الفاصل بين إسرائيل وفلسطين. وكلما هممت بالتقاط صورة من كاميرتي، تذكرت قوله عن مهنته: «**المصور يجب أن يكوِّن رأيًا عن الأشياء والعالم والتفاعل مع هذا العالم**».

مهما كانت الصورة التي تلتقطها فهي رأيك لجزء من أربعة وعشرين جزء من الثانية، في كادر ما بهذا العالم فلا تستهن بها.

عندما تصل إلى ساحة أستروماك. ستكون غارقًا بالتفصيل، تقف وسط الساحة لترى خط الطول الوهمي الذي يقال إنه يفصل أوروبا الغربية عن الشرقية، إذًا أنت في القلب تمامًا، قلب أوروبا، وقلب المدينة التي بدت هذه الأيام مطمئنة القلب.

أدور عدة دورات بهدوء، لأجد امرأة متشردة تبيع مجلات قديمة، وقد غطت في نوم هادئ. إذًا أنا أمام أول قصائد هولان مجسدة.

في ديوان هولان المترجم إلى العربية عبر سعدي يوسف عن دار الجمل، وجدت هذه القصيدة كأنها تحاكي هذه العجوز الممددة أمامي نومها الطفولي بشارع جانبي يودي إلى واحدة من أجمل ساحات العالم.

على الرصيف

امرأة عجوز

تعرج إلى هنا، كل يوم

لتبيع الجرائد

وحين تتعب

تتكوَّم على حزمة جرائدها

وتنام.

المارَّة ألفوها

حتى لم يعودوا يرونها

أما هي، الغامضة الصامتة، مثل عرَّافة

فإنها تخفي ما كان عليها أن تقدمه.

هذه العجوز كانت صبية في ربيع براغ، تغيرت المدينة من الشيوعية الخانقة إلى الرأسمالية الحانقة وبقي المشهد واحدًا.

لماذا العجائز لا يكبرون؟ تساءلتُ وتابعت الطريق باتجاه ساعة براغ. في الزاوية الجنوبية من مبنى البلدية العريق. بينما بضعة موسيقيين في الشارع، يبللونها بنفحات من موسيقى موزارت.

فبراغ بلا موزارت كالنبيذ بلا كحول. فهي العزيزة الغالية على قلبه وبدونها لكان التهمه النسيان. فوهبها أحرّ جمرات قلبه. موسيقى تبدو وكأنها جزء من نظام الكون، كل ما فعله أنه أظهرها منفردة عن سياقها.

تخطو بجوارهم عربات تجرها أحصنة، واكتظاظ مدهش بالحياة والسياح بدأ يلحظ وجودهم في صبيحة يوم السبت، سياح من كل الأشكال، يطالعك همس متكرر وتذمر معاد من الزائرين.

إنهم خرفان يتعرضون للابتزاز، وهذا شعور حقيقي هنا، ولكن شخصيًا أشعر أنه برفقة الشعراء، تصبح المدينة أقل قسوة، تفتح لك أبوابها الجانبية، تعطيك بعضًا من كنوزها الثمينة التي لا يراها السائح.

ساعة براغ: توقيت العدم

الزمن ثبت وشاخ، عند هولان، فهو دون أدنى شك بعرف ساعة براغ كان توقيت العدم، هو سيد تلك الحقبة البائدة. كانت يومها ساعة براغ ساعة حزينة مدانة، لم يوقف عملها الشيوعيون، ولكن احتلوا فقط الزمن المحيط بها فأصبح كل توقيت يضبط على ساعات موسكو، كان يكفي التفكير بها حتى يتحول الزمن إلى كتلة عمياء تصيب الإنسان بالرعب.

يكتب قصيدته ـ أكثر ـ بالقلة اللازمة للكثافة.

أكثر شبابًا لننسى الاحتضار،

لحظات الوداع،

أكثر إنسانية لنعرف

أن لا شيء يستحيل على الحكمة

المتوسلة تحولها،

أكثر هروبًا لنجهل

أن الأوهام هي أيضًا تغار

إلى أن ندمرها بانشراح.

هي واحدة من أكثر الساعات غموضًا وشهرة، يتحلق تحتها السياح

ويكتظ المكان بالناس على رأس كل ساعة، ليشاهدوا العرض المذهل لأقدم ساعة ما تزال عاملة حتى اليوم في العالم.

تتألف الساعة من 350 قطعةً تتوزع على ثلاثة أجزاء رئيسية. الأول الساعة الفلكية، يمكن عبرها قراءة الأوقات والدورات الفلكية وموقع الشمس والأبراج، وموقع القمر فوق أو تحت الأفق ومكانه بالنسبة للشمس.

الجزء الثاني: يتضمن روزنامة على شكل دائرة قام بتركيبها الرسام جوزيف مانيس في القرن التاسع عشر. الجزء الثالث: في الأعلى نافذتان صغيرتان تأويان تماثيل خشبية صغيرة لرسل المسيح تتحرك بشكل دائري على رأس كل ساعة، حيث يطل الحواريون منها ليباركوا المدينة ملقين نظرة خاطفة بالتسلسل على الناس. يترافق مع قرع للأجراس وحركات تؤديها تماثيل لهياكل عظمية صغيرة، تذكر أن الموت حارس الزمن الأوحد. وعند الانتهاء من التنبيه إلى الوقت، يخفق ديكٌ بجناحيه معلنًا اكتمال الساعة كما كان يحدث قبل عدة قرون.

الساعة الروزنامية تظهر أربع مؤشرات للوقت.

الأول ـ لقياس الوقت بوسط أوروبا ـ يبينه المؤشر الشمسي والأرقام الرومانية على أطار الساعة.

الثاني ـ لقياس الوقت التشيكي قديمًا ـ حيث تحسب بداية اليوم من لحظة غروب الشمس. تبينه الأرقام الذهبية القوطية الموجودة على حلقة تتحرك بانفراد خارج الإطار.

الثالث ـ لقياس الوقت البابلي ـ يحسب اليوم به من شروق الشمس إلي غروبها فأيامه بالصيف أطول من أيام الشتاء. وهذه الساعة هي الوحيدة من نوعها في العالم القادرة على قياسه.

الرابع ـ القياس الفلكي للنجوم ـ يوجد بالطرف الأسفل حيث يحدد اليوم وموقعه في الأسبوع، الشهر والسنة.

تشير المصادر التاريخية التشيكية إلى أن أول إشارة إلى هذه الساعة ظهرت في 14 تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1410، ويتبين منها بأن أحد الساعاتيين واسمه ميكولاش قام بهذا العمل الفني. وقد اعتمد في ذلك على حسابات أحد أفضل علماء الفلك والرياضيات البراغيين آنذاك، وهو يان شيندل الذي كان طبيبًا خاصًا للملك فاتسلاف الرابع، وترأس جامعة كارلوفا، واحدة من أقدم الجامعات في أوروبا .

وأنا أناظر الساعة من الأسفل سمعت صوتًا عربيًا، يتحدث عن الساعة، تلفتُّ لأتعرف على طبيبٍ عراقيٍ يقيم في براغ، يشرح لولديه آلية عملها. تشاركنا الحديث وأخبرني أن مكافأة الملك لمصمم الساعة كانت أن فقأ عينيه، لكيلا يقوم بتصنيع ساعة أخرى لمدينة أخرى!!.

فقلت له: هذا جزاء سنمار فعلًا؟ فسأل أحد الأولاد عن هذا السنمار، فقمنا بتذكر قصة هذا المثل وقصصناها على الولدين.

جزاء سنمار

«من الأمثلة العربية الشهيرة، والتي مازالت تستعمل حتى اليوم يقولون (جزاء سنمار)، حكاية المثل وبطله المهندس السنمار الذي استخدمه ملك الحيرة النعمان بن امرؤ القيس بن عمرو اللخمي، وكان يطلق عليه لقب ملك العرب، كعادة ملوك الحيرة في ذاك الوقت أراد النعمان أن يبني قصرًا ليس له مثيل مثل ساعة براغ، ورغبة ملكها أن لا يكون لها شبيه، ليفتخر بها بأوروبا كلها. أراد النعمان أن يفاخر بها الفرس حيث أن ملك الفرس كان سيقيم بهذا القصر، ووقع اختيار النعمان على مهندس اسمه سنمار لتصميم وبناء هذا القصر. سنمار هذا كان رجلًا روميًا مبدعًا في البناء.

وكلفه النعمان ببناء القصر فطارت به أحلامه وآماله وبدأ يمنِّي نفسه أن مكافأته ستكفيه لآخر حياته، واستغرق سنمار في الإشراف على البناء سنوات عديدة حتى انتهى منه واختار له اسمًا الخورنّق.

كانت الناس تمر به وتعجب من حسنه وبهائه. ثم جاء النعمان ليعاين البناء. واستعرض القصر وطاف بأرجائه، ثم بعد محادثة قصيرة مع سنمار، أمر رجاله بإلقاء سنمار من أعلى القصر فسقط جثة هامدة بلا حراك. ولكن ما هذا الحوار الذي انتهى بقتل سنمار؟.

ويقولون إن سنمار أخبر النعمان: إني أعرف موضع حجرة، لو زالت

انقض القصر من أساسه! فقال له: أيعرفها أحد غيرك؟ قال: لا. قال: لأدعنها وما يعرفها أحد.

فأمر به فقذف به من أعلى القصر فمات ومن يومها ضربت مثلًا يقولون: جزاء سنمار.

أنهينا حكاية السنمار والأولاد متعجبين، تبادلنا المجاملات وابتعدت العائلة اللطيفة. مع انفضاض الناس من تحت الساعة وعودة الحركة إلى الشارع، جلست في المقهى المقابل، بالطابق الثاني على الطاولة المطلة عليها، كانت معدتي تأمرني بالتوقف عن كل شيء، وإعطائها بعض الطعام فقد ملَّت القهوة. وكانت فرصة، أن أطالع الساعة من موقع ممتاز وأصور الاحتفالية من النافذة بدقة، وأطلب بعضًا من شوربة الفطر الشهيرة، والسلطات التي يتفنن طهاة المدينة صناعتها، بينما تتقدم سيارة ليموزين عملاقة، لتخرج منها عروس جميلة، فطقوس الزواج البراغي لا تتم إلا بزيارة الساعة وتبادل النذور تحت بركة حواريها، وطلب الارتباط الأبدي على التوقيت البابلي والأوروبي. مشهد طبيعي يخفف من سياحية المدينة ويجعلك تشارك في طقوس أبنائها، وأيام السبت والأحد، نادرًا ما تمر ساعة دون أن تأتي عروس بثوب أبيض، لتأخذ حصتها من زمن براغ.

أكمل المسير في وسط المدينة لأدخل أضيق شارع بالعالم، لا يتسع إلا لشخص نحيف واحد عرضه أقل من نصف متر، وممنوع على من يملكون وزنًا الدخول به لأن الأمر سيطلب قدوم فريق الدفاع المدني لإخراجه من الداخل، ينظم المرور بالاتجاهين عبر إشارة ضوئية يعني حين تدخل من أي جهة، ستكون الإشارة الحمراء في الجهة المقابلة تمنع مرور أحدهم حتى تخرج، درجات تحملك بين ضفتي البلدة القديمة لتخرج إلى فضاء مكتظ بالجمال الوقاد، والأطعمة المنوعة، ومحلات

الكريستال الشهير، وفنانو الشارع البارعين، وصخب الاكتظاظ البشري. وتنتابك الحيرة أين تتجه؟ سأختار أن أدخل المسرح الأسود، وتختار رينا أن تدخل كنيسة لحضور كونشيرتو للموسيقى الكلاسيكية، كنت أعرف أن شخيري سيملأ المكان كما يحدث عادة مع كل عرض لسمفونيات المجيدة، ودرءًا للإحراج كنت أحتاج إلى عرض صاخب بصري، ممتع، لا ينوِّم، ويبقي العقل مستيقظًا، فكان المسرح الأسود أحد أجمل عروض الإبهار في العالم التي تبقيك مخطوف الأنفاس ومستقيظًا طوال ساعتين.

هولان: وهول الشعر

فلاديمير هولان يعرف بأنه أعلى شجرة من أشجار الغابة التشيكية، تلك الشجرة الأقرب إلى العاصفة حيث تعكس عيناه البرق بشكل طبيعي.

أراغون

كان يومًا دسمًا، لا بد أن أختمه بفلاديمير الذي كان شريكًا حقيقيًا في فعل التنفس الثمين بالمدينة الذهبية. ليس هناك من تشيكي لا يعرف هولان، شهرته لم تكن غريبة، أسطورته حيَّة، لغته معاصرة مهما تغير واقع الاستبداد، أصالته ككاتب معني بروح الوجود جعلته في مناهج الدراسة بكل المراحل الدراسية لطلاب المدارس في التشيك.

هولان في ضمير التشيك رغم أن هول الشيوعية قد تلاشى، لكنه بقي ناصعًا، ببساطة لأنه لم يكن يومًا شاعر القضية بل شاعر الإنسان. لم يكن شاعر منابر بل شاعرًا فوق الزمن.

شعراء القضايا، ينتهون بانتهاء قضيتهم أو يلتصقون بها. وأي خروج من دائرتها بمثابة سقوط حقيقي. كتاب المعارضة، يتحولون إلى اللاشيء حين تقوم الثورات ولا يشاركون بها، أو حين تتغير مناخات الأمم، وما كان جريئًا في شعرهم أصبح عاديًا في شعور الناس فيسقطون كذلك.

فمعظم كتاب أوروبا الشرقية المعارضين ابتلعهم النسيان بعد انهيار

المنظومة الحديدية، وتوقف الاحتفاء بهم وانتهى دورهم، قليلون من بقوا على رأس قائمة التذكر، والاحتفاء بهم هم من لا يمكن تجاهلهم، كان أولهم فلاديمير هولان. ليتوج واحدًا من أعلى شعراء التشيك وأوروبا قامة وحضورًا.

لم يكن صاخبًا ولا قائدًا، لم يكن ناشطًا ولا متفوهًا لم يكن يطل على الإعلام، ولا يشتغل على صورته، ولا يسوق لنفسه... كان يحيا في عزلة تامة، بزغ نجمه في الربيع السريع لبراغ، وصمت أمام هدير الدبابات المخيفة التي التهمت الشارع والشاعر معًا.

لكنه كان صمتًا جارحًا، مُراقبًا من قبل أجهزة الأمن. هذه الفضيلة كانت ستكون رذيلة لو أن الناس في التشيك ظلوا ثائرين وهو صامت، كان يماثل الوجع الحقيقي تكلم حين انطلق الرفض، وتبللت الحناجر بأناشيد الحرية فكان في الطليعة، أول من تكلم وآخر من سكت. تلك هي المعادلة المسموحة للصمت في بلاد الموت والتكميم والرعب.

لكنه بين فينة الصمت وأختها يطل برأسه، يهمس بقصيدة من قلب الفجيعة ويعود إلى عزلته النقية.

أقل من أن يقال

الصمت عن أي شيء، ومن أي شيء

هذا ما ينتظرنا...

لتكتمل الصورة

حين تصطدم الفكرة بالجدار، الحرية بالجدار، على الإنسان أن يحرر داخله، لا يمكن تجريد رجل عاري ولا حبس فكرة في الداخل ولا يمكن

وأد نزعة الحرية لدى الإنسان، لا يمكن أبدًا مهما تعالت الجدران. يكتب هولان توصيفًا بليغًا للأسوار التي تسيّج بلده وروحه وصوته.

جدار...جدار قاتم الحب في البستان

كراهية في الإنسان

بجوار الأعماق هناك أشجار أكثر

من الفواكه

توجد في الخارج خطايا أكثر من الأفخاذ

هذا الجدار، على سمكه، وعلى كونه

عاليًا وحادًا، يغوي

لتكتمل الصورة، هناك أفاع

بين شقوقه تراقب

جدار جيد!

عاش في قلب العزلة ومتن الصمت، وعلى الهامش طيَّر قصائد تضج بالأصالة والنضج والتحدي. لم تكن الحياة منصفة معه، ابنته ولدت بمتلازمة داون. جعلت من وجعه الشخصي والعام، ألمًا لا يحتمل ولا يتوقف. أن تعايش الألم اليومي في كل نظرة في كل لحظة في كل أمسية، سيكون بمثابة واحدة من الشاخصات الشديدة الخضرة، لنبتة الألم التي لا تيبس في روحه وفي تاريخ الإنسان.

كانت القبضة الشيوعية الحديدية، تعصر البشر وتخرج أقبح ما فيهم، خاصية الخضوع والتمجيد، القبول والتسليم والخوف المرعب من الاستبداد المقرف، فكان يعلن:

الإنسانية ليست شيئًا، بالنسبة إلي

عشت للإنسان. لمأساته

وتقاطع الألم الشخصي بموت ابنته كاتارينا عام 77 مع تخلي أوروبا وعجزها عن مساعدة التشيك. وتسليمها بدناءة إلى السوفيات. كان هولان من براغ ولد فيها في 16 أيلول/ سبتمبر من العام 1905. فترة الحرب الروسية اليابانية، فأعطته أمه اسم فلاديمير تعاطفًا مع روسيا. لكن هذا الاسم سيتحول إلى لعنة لما يمثل من سلطة ورعب وقمع، فحمله كارهًا له ولكل ما يخص الروس بصلة، لما فعلوه ببلده وبشعبه وبعد ثلاث سنوات من رحيل ابنته. توفي هولان مخلفًا إرثه خلفه ليعود للحياة مع تحرر البلد والانفصال عن السلوفاك، ويتوَّج شاعرًا فريدًا حتى اليوم.

ماشيًا

إذا لم نشعر بأننا ضائعون

فلأننا كذلك، تائهون، عما يجري للآخرين

وفي نفوسنا

تائهون عن ذلك، نكتب رسالة والظّرفَ،

نختم ونسطر: لا تُفتَح إلا بعد موتي!

لكن أن نتيه، وأن نعجز

عن العثور الآن على القمر في الكتب، والليل فقط في المقروء،

أن تجهل نهايتك وحدودك،

ألا تكون وحدك، ضائعًا،

كما لو أن ألمك الخاص وألم غيرك

يلدان لك قلبًا ثالثًا

هو هكذا بهذا النَّقاء، رجل بثلاث قلوب وشاعر جسَّ الوحدة بيدين عاريتين فالتصق بها. يعقد أوصار الكلمات بعضها ببعض بحبال الريح وحرير الضوء فيحوله إلى نسيج من الهفافة، وقطع مدهشة من المعرفة النقية، بتماهيه مع ألم الإنسان أينما كان، بتصويره للحظات معتمة لم تضاء من قبل في النفس البشرية وتناقضاتها وكونيتها، وبقدرته المذهلة على الانتصار على الرقابة اللصيقة والإصرار على تسمية الحقائق بنفس الوقت. بنعيه الإنسان والفرح في بلدان الدكتاتوريات السوداء القاتلة.

لا يمكن أن يكون الإنسان إنسانًا بلا حرية، لا يمكن أن يساهم بالسعادة والخلاص الإنساني إن كان عبدًا أو مستعبدًا، لا يمكن للإنسان أن يحبَّ، في بلد القهر، أن يكون أبًا وقدوة في بلد الزعماء الأمجاد، لا يمكن للشاعر أن يمجِّد الخير في بلاد تمجد القائد، لا يمكن للإنسان أن يرتقي بالقيم في بلاد المخابرات والأمن والتحريات، وتسويق الكذب والسفالة والبشاعة، وتفصيل البلاد على مقاس معدة وقضيب وحلم وعقل وتفاهة الحاكم.

ولكن حتى بأقاصي الصمت نضج بالإجهار، في البلاد التي تحصي الأنفاس والكلمات وتعتقل على الشبهة والاشتباه، لن يفتقر الشاعر الحق لإيجاد كوَّة في قلب العتمة، لإيجاد اللعنة المناسبة أو التعويذة التي تمسُّ من يقرأها، فينفك عنه سحر الخوف ولو سرًّا.

وهنا عبقرية الأدب والدرس الذي يقول لكل الذين يدعون المنع من النشر، إنه نقص في شاعريتكم وقدرتكم على الاحتيال على الرقيب. الرغبة بالمنع لدى البعض تكرِّسه، والخوف من المنع لدى آخرين، تسيح ماء لغتهم. وبالمناسبة لا يوجد جملة مدهشة صادقة قوية يمكن حضرها.

لا أحد يستطيع منع التعبير مهما أوتي من قوة. ففي فيلم المركيز دي ساد، حظروا عليه استخدام الورق، فبات يكتب على الملاحف، منعوا

عنه الحبر، بدأ يجرح نفسه ويكتب بدمه، أوقفوا عنه وسائل الكتابة من ريش وأقلام، صار يغطس أصابعه ببرازه ليكتب على الجدارن.

تأكيدات قاسية وشكوك فاغرة، قصائد تخرج من طين الأيام. إنها كتابة شخص وحيد يغور طوعيًا في الصمت، لكنه صوت لا يعزِّيه في أي شيء: (**للصمت نفسه شيء ينبغي أن يخفيه**). بهذا المعنى كان هولان يمارس هذه الظاهرة الثابتة في الثقافة التشيكية: السخرية المتوحشة التي تبدو بمثابة رقية وحجاب ضد الكاتب نفسه، تمامًا كما عند كافكا.

كتب نص المغادرة وصمت. يلحق بابنته بعد ثلاث سنوات من موتها الجارح الجارف، كانت عنوان البراءة بمرضها القارس، كان يتأملها ويتألم كل يوم، وحين ارتاحت وغادرت، عانق الفجيعة بحب وتسليم، وأنات صامتة، حتى تولاه الموت ليرقد ويستكين، ولكن الألم الشفيف ما زال يخرج من تحت الأرض في ليالي البرد والحزن البراغي، مغموسًا بصوته المرتجف وكأن في هذه المدينة مسٌّ من الرهافة الموجعة لا تتوقف عن النبض. ففيها يرقد اثنان من أصدق من رأوا فجيعة الإنسان ووثقوها. فرانز كافكا وفلاديمير هولان. يكتب:

يغادر الشعراء

ويخلِّفون، دومًا، فيما يخلِّفون

شيئًا أرهقه الزمن والخطيئة والمنفى

أَصْدَقُهم

وأقلهم شهرةً

وأهدأهم

وأكثرُهم حبًا،

لا يقحم عليك شيئًا:

حتى بصورته...

بهزئه، أو بعزائه،

بل حتى بحبه

هو حاضر، غائب

وبيكاسو وهو يصنع رجل ثلج

فهم جيدًا

أن خلود الفن هو في الزمن، والخطيئة، والمنفى

التي على الشمس أن تفتديها

بالدمع والنبع، بالنهر والبحر.. والعدم

أحمل هولان معي وأصعد إلى القصر، بخفة عبر درجات متموجة نصغي إلى انبعاث موسيقى موزارت من مكبرات صوت صغيرة مزروعة بدقة على جانبي الطريق، ترافق الصاعد للأعلى، لا تعرف إن كانت خطواتك تدوس على الدرج الحجري أم السلم الموسيقي. ـ لكل رجل رافعها، يقول المثل السوداني، وأنت مهما كانت الدروب التي تعتادها، ثمة من سيغوي قدميك بالمسير أو المزيد، مع كل ارتفاع إلى الأعلى، تتكشف المدينة الرهيبة عن جسد شديد الخضرة، يخترقه مئة برج، والنهر المدهش بقدرته على التلوي والجريان من أول براغ لآخرها يسمى الفالتافا.

في مقبرة اليهود

المقابر أكثر شاعرية من صالات الأفراح.

فادي عزام

لنذهب باكرًا إلى المقبرة، اقترحت رفيقة قررت أن تزور معي المقبرة، وهي تنظر إلى الخريطة إنها بعيدة في الدائرة السابعة من المدينة قريبة من الضواحي.

من مالسترنكا إلى جالفسبو سبع محطات في المترو يودي إلى ضواحي براغ، أبنية متشابهة من العهد السابق، والمساكن الشيوعية التي بنتها الدولة، أبنية مسبقة الصنع كريهة بشعة متشابهة، وكأنها لا تخص براغ.

مائتا كراون ثمن باقة من الورد، حوالي 9 دولارات دخلنا في مهابة إلى المقبرة اليهودية المظللة بأشجارعملاقة، على الباب مباشرة غرفة يتوسطها حارس المقبرة، رمقني بعينين قزَّازتين، وقال: بإني لا أستطيع الدخول حتى أرتدي القبعة اليهودية على رأسي، يقصد تلك القلنسوة الزرقاء بنجمة سداسية، جعلت جسدي يقشعر. من المستحيل دخول المقبرة أو أي معبد أو مكان ديني يهودي بدونها، علي ستر فروة شعري بينما يمكن لرينا أن تدخل بشعر مفلوش ولا أحد يستوقفها، أرشدني إلى مكان وجود القلانيس الزرقاء بحزم، أخذت القلنوسة من الصندوق

الكبير في جوار الباب. ووقفت صامتًا لا أعرف ماذا أفعل، ضاق تنفسي فجأة وشعرت أن علي الخروج من هذا المكان، وفعلًا فعلت، اجتزت البوابة الكبيرة وصرت خارجًا واقفًا بذهول، وغضب ولا أعرف لماذا؟.

أحمل القلنسوة بين يدي وأشعر أن هناك شيء غير عادل، لم يكن كافكا يومًا متدينًا يهوديًا، وكان موقفه سلبي تمامًا من الصهيونية وتثير لديه الغثيان. ولكن قراءة كافكا المجيرة لمصلحة الصهيونية هي ببساطة تعني تصنيفه وقتله وصلبه. فهو القائل بوضوح لا يحمل أي ريب: **ماذا يجمعني باليهود؟ أكاد لا أرى شيئًا يجمعني بنفسي.**

سيكون كتاب «**كافكا ـ كاتب يهودي من وجهة نظر عربية**»: كتاب صدر بالألمانية للباحث عاطف بطرس، وفيه يتناول المؤلف تاريخ استقبال أدب أحد أشهر الكتاب في العالم، كما يشرح خلفيات النقاش العربي الحاد الذي اندلع حول «صهيونية كافكا».

يسهب الكتاب في الأسباب التي جذبت أعمال فرانز كافكا المثقفين في المنطقة العربية منذ منتصف القرن العشرين. وكان أول من عرف القرَّاء على أعماله باللغة العربية الدكتور طه حسين، وذلك في مقال صدر في منتصف الأربعينات، قارن فيه بين أجواء عالم كافكا والشاعر أبي العلاء المعري معتبرًا أن كلا الأديبين عاشا عصرًا من الاضطراب والأزمات والفساد، وأن كلاهما عاش متأرجحًا بين اليأس والأمل.

طه حسين قرأ كافكا بوصفه كاتب كوني، متخلصًا من قصر النظر الذي يسعى للتصنيف والقتل الشخصي، وبالتالي إعدام المنتج سلفًا.

ووجد طه حسين في أعمال كافكا حقائق موجعة، لكن لا يمكن إنكارها والتي تتمثل في استحالة ربط الإنسان بالرب، وعدم فهم الذنب

البشري، وعدم معرفة مغزى الحياة، فالتشاؤم يحمي الناس من الكبر والغطرسة.

نشر طه حسين في أيار/ مايو 1933 في مجلة «نجم الشرق» مقالًا بعنوان «الاحتقار» التي أجرى فيها سجالًا مع أديولوجية المذهب القومي الاشتراكي (النازي) المناهضة للفكر، ولقد نادى باحتجاجات دولية عقب حرق كتب الكتَّاب اليهود في برلين، وقام طه حسين بدعوة من «يودا ماجنيس» رئيس الجامعة العبرية بزيارة القدس عام 1943 ـ قبل قيام دولة الكيان ـ وأظهر تعاطفًا كبيرًا لمصير اليهود الذين قام النازيون بمطاردتهم وقتلهم.

ويهمل الأدب العربي وكتاب السيرة ما فعله عميد الأدب التنويري، طه حسين حقًا. ولكن دون أدنى شك كان لهذا الموقف الأثر الأكبر بفتح الثقافة العربية على أدب فرانز كافكا.

غير أن قصة ذات مستوى ضئيل من أدب كافكا اعتمدها البعض، لإدانته واعتباره كاتبًا صهيونيًا، هي قصة «بنو آوى وعرب».

قام بعض الكتَّاب العرب بالمناداة بحظر كتب كافكا وهناك كتَّاب عرب تمسكوا بكافكا بقوة بمنتجه، ووصل الأمر بأن يقوم نائب في البرلمان السوري عام 2004 بالمزاودة على التاريخ والأدب والمطالبة بمنع ترجمة كافكا من قبل وزارة الثقافة السورية، ولم ينتهِ السجال وليس آخره ما كتبه عاطف بطرس بالألمانية، ختم كتابه بالجملة الختامية من قصة كافكا «ورقة قديمة» **هذا سوء فهم، سيؤدي بنا جميعًا إلى الهلاك.**

برسائل كافكا إلى خطيبته سيرد فيها إفصاح عن بعض رغباته بالذهاب

للعمل في فلسطين، ولكنه لم يفعلها وتورد لديه جملة متناقضة، يقول فيها:

«**أنا معجب بالصهيونية، أنا مشمئز منها**» وهي جملة توضح التناقض برأيه حول الصهيونية كحركة تحررية في أوروبا، وحركة استعمارية في فلسطين. فهي كان لها خطابين مختلفين، واحد لنصرة اليهود في أوروبا الذين تعرضوا حقًا لأكبر مأزق وجودي عرفه التاريخ لشعب أو عرق أو دين، والآخر كيف تحولت الصهيونية التحريرية إلى شبيه لمن تكافحه، بأفعال يندى لها جبين الإنسانية في فلسطين.

كل هذا خطر ببالي وأنا واقف أتأمل القلنسوة اليهودية. وأفكر بحجم الشرخ الحقيقي الذي صنعته الصهيونية، بين اليهود والعرب فعلًا. كانت كل الزيارة مهددة، وكل هذا التعب صار على المحك .

لا يمكن لي أن أضع هذه الخوذة على رأسي: قلت لرفيقتي.

التي حاولت إقناعي وقالت: **إني أتفهم هذا تمامًا. ولكنها طقوس شكلية لا تعني شيئًا، ألا تذكر يوم زيارتنا للجامع الأموي، جميع النساء يضعون حجابًا حتى الأوروبيات على الرأس. وأنا وضعت الحجاب على رأسي احترامًا للمكان ولا يعني هذا أني أتبنى أي موقف، إنه نوع من الاحترام لمعتقد إنساني وليس إلى حركة استعمارية أو شيء مختلف.**

كان رفضي حتميًا، فصورة المستوطنين في فلسطين وهم يحملون رشاشات «العوزي» و يتقلَّسونها هي ما يرتبط في وجداني بهذه القلنسوة.

هناك سوء فهم عميق تكرس وتجذر وشخصيًا، أنا لا استطيع البدء بالتفهم تحت أي مسمى، لست مؤهلًا لا نفسيًا ولا عقليًا لذلك. أنا معادي للصهيونية إلى آخر يوم في حياتي، مثل معاداتي لكل ما هو فاشي،

ونازي، وشمولي. ليس لدي مشكلة مع اليهود، ولم يكن يومًا في سوريا مشكلة مع اليهود، مشكلتي الحقيقية مع الاحتلال والاستعباد والاستعمار والكذب التاريخي.

عقلي يعرف أن اليهودية بريئة من مجرميها كما الإسلام بريء من مجرميه كما المسيحية كما البوذية.. في الحقيقة الله نفسه بريء من كل هذا؟.

كان علينا أن نهدأ ونتوقف لنشرب بعضًا من القهوة. ونفكر ماذا يمكن أن نعمل؟ تذكرت فجأة الموسوعة اليهودية أني قرأت فكرة قد تكون هي الحل.

كل ما في الأمر أن علي أن أضع قبعتي الرياضية على رأسي وربما يمكنني المرور.

يعني المهم تغطية الرأس وليس مهمًا بقلنسوة زرقاء عليها نجمة سداسية أم لا.. وفعلًا أخرجت القبعة الرياضية من الحقيبة، ووضعتها على رأسي، ومشينا من جديد إلى المقبرة. دخلنا بهدوء، وبدون النظر إليه مررت بجانب الحارس لم يحرك ساكنًا، كانت مقبرة عظيمة ذات مهابة لونها الأخضر من أغرب الألوان التي رأيتها في حياتي، قبورها عملاقة راسخة، نظيفة جميلة ومرتبة بعناية مدهشة،: «المقبرة بتشهي الواحد يموت».

حتى وصلنا إلى القطاع رقم 21 رقم حظي، بجوار السياج كان قبر فرانز كافكا يجثم هناك تحت سطح من الحصى الأبيض. بجواره قبر أبيه ومقابله قبر صديقه ماكس الذي له الفضل بإبقاء جزء كبير من تراث كافكا حيًا. لم ينفذ طلبه بإحراقه.

ورائي جاء الحارس يسعى، ينظر إلينا بعينين مرتابتين، لم نأبه له، لم أكن على استعداد أن أفرط بقيمة تلك الثلاثين دقيقة التي بقيتها بجوار القبر. وبينما انضم إلينا سائح آخر قادم من إنكلترة كان يرتدي قبعة، تشاركنا معًا تلك اللحظات العالية من الصمت، تقاسمنا التأمل والنظر إلى قاع القبر، وتبادلنا الابتسامات الودودة قبل أن يغادر بهدوء.

بقيت لأتمم مراسم الزيارة، رتبت باقة الزهر وأسندتها على كعب الشاهدة ثم بدأت بالقراءة بصوت جهوري مسموع جعل الحارس يأتي مرة أخرى لينظر إلي «شزرًا مزرًا» ويتمتم بضع كلمات ويمضي.

لرجل مات

الخنجر في القلب

والابتسامة بين الشفتين

الرجل مات

الرجل يتنزه في قبره

ينظر إلى الأعلى

ينظر إلى الأسفل

ينظر حوله

لا شيء سوى التراب

لا شيء سوى القبضة اللامعة

للخنجر في صدره

يبتسم الرجل الميت

ويربت على قبضة الخنجر

الخنجر صديقه الوحيد

الخنجر

ذكرى عزيزة من الذين في الأعلى

وضعت رسالة رياض في قلب القبر، بين حجرين ثابتين، وانتقيت 12 حصوة بيضاء أخذتها كتعويذة من المقام الجليل، سأقدم بعضها لمن يستحقُّ حبَّ كافكا حين أعود. في حضرة القبر والمقبرة كان علي أن أسند ظهري لشاهدة القبر، وأرقش انطباعاتي عن عوالمه. وأكتب كيف أراه وأحسه وأقرأه.. وأقول للعالم على الأقل هذه قراءتي. أعكِّر صفو عزلته الأبدية فهو الذي قال: لا أعتزلُ الناس لأنني أريد أن أعيش بِسلام، بل لأنني أريد أن أموت بِسلام.

في صميم الكافكاوية

هناك مراحل في التاريخ تشابه فيها الحياة روايات كافكا.

ميلان كونديرا

برهة صافيةٌ من المُحال المتحقق، من الجمال المدمِّر، من الشُّجون الطَّائشة.

من الزَّغب المتلامح فوق سرَّة الوقت، من المدينة التي لا تشبه سوى حبيبة مبتلاة بجمالها الفذّ.

أية لحظات مرعبة خطَّافة مهولة قدِّر لهذا الرجل النحيل أن يتحملها، في قلب الرعب الداخلي للنفس المشبعة بالفزع.

يكتب في المذكرات «**والحقيقةُ الأقربُ منكَ على كل حال هي هذه الحقيقة فقط: إنك تضربُ رأسكَ بحائطِ سجنٍ لا نافذةَ له ولا باب**»

كيف امتلك خاصية سلخ الهشاشة النَّاعمة المغرية عن مكامن الألم الإنساني الضَّائع والمتواري في الذات البشرية الصَّلدة؟ كم من الأحمال ناء بها كلكله وكتفاه الهشان وروحه القلقة.

شحَّل ما علق باللغة، واستهدى بالاكتواء والألم والجراح والسعال والسل الذي نبت في رئتيه، بعد أن أضناه التنفس في الكهوف الرَّطبة الباردة القاحلة للعقل المأخوذ بالخرافة والغرور والقتل. برفقة نفس أمَّارة متعبة مرهقة متغاوية محرضة.

هل الأصل أن النفس خيِّرة؟! ولماذا لم تتعلم شيئًا من تبدل آلهة الوهم بآلات القتل. أية مخيلة يمكن أن تنتج آلةً للرّعب. كتلك التي صنِّعت في مستعمرة العقوبات القابعة في أعماق أعماقه المحترقة بشواظ اللاهب العالي.

كيف قلب الراسخ والمكدسات الثَّابتة؟ وأرضخ كارل المزيف للأب النبيل الجالس على كرسي الملل الوثير، فقط ليصدر حكمًا، بقساوة ساطور يقطع على فلذة الكبد بالموت غرقًا مبرمًا في نهر فالتافا. وعندما فرغ من كتابة ـ قصيدة الحكم ـ يوصِّف كيف تجمدت قدماه وصار من العسير أن يسحبهما من تحت الطاولة.

يكتب عن رحلة الجلجلة التي قطعها وهو يرى كيف تتطور الحكاية بين يديه، تسلِّمه كلمة فكلمة. يغوص الحبر في ثقب قلبه المتهالك، في عمق روحه المرجومة، في سواد خياله المرتج بالقعقعة والنداءات الغامضة للمتألمين بلا صوت، من حروق هائلة في النفس، من عذابات اقتراف الحياة قبل تزويرها بكل مباذلها وإغوائها يشحِّف الجلد بشفراته الحبرية، يكشط اللحم، يقطِّر الدم، وينجف العظم عن اللغة والفكرة ويعيد الرميم إلى رمته. ويحيل اللغة سيدةً مطلقة. مؤكِّدًا.. في البدء كانت الكلمة، منها يأتي الخلاص. في النِّهاية ستكون الكلمة تطفو فوق الرماد وجثث العالم، حرَّة حقيقة أخَّاذة لن تجد من يستعملها، فتطمئن، ويعاد لها سحرها وألقها، قدرتها على الخلق والاستتباب.

لغة الحتم البارد، ألم يكن ما خطَّه كافكا تدريبًا مذهلًا على تقبل هول الحقيقة، يقول لخطيبته: **أنا ثقيلٌ جدًا بالنسبةِ لي، وخفيفٌ جدًا بالنسبةِ لكِ.** حيث تتساوى الحوافز والنَّوابض والنِّهايات، تنعجن معًا في عصارات الغايات الكلية السحرية السرية للحقيقة.

«**أنا قذرٌ يا ميلينا، قذرٌ بلا حدود، ولذلك أصرخُ كثيرًا بشأن الطَّهارة**».

نحن انمساخٌ حدث في الطبيعة، جزءٌ من العتم القاني. أتانا الاستبصار فخنَّاه بالبصر، أتانا الوعد فنكلنا به بالوعيد. جاءتنا المنح فأربكناها بالتَّسول، لكلِّ مطلق كبير مدمِّر حارق صاعق هشٌّ سهل الاجتياز. فقط كان علينا كتابته لا تلاوته، غناؤه لا اجتراره. أن نطبطب على وحدته. بدلًا من الانبطاح لشكره. كان علينا أن نهجره ونحاكم سطوته قبل الانزياح والتَّوهم وإسلام القياد له في إطفاء رغبة معانقة الجذور.

منحتنا الطَّبيعة فرصة كما الديناصورات من قبل، وحين فقدت السَّيطرة علينا أسلمتنا زمام الخراب. «**إنني واعٍ وبوضوحٍ تام كم هو ضئيلٌ ما أستحق!**».

حيث الاختلاف يستحيل ضفتين، والنهر المتفجر بالجريان وريد الحياة الذي ما زلنا نمعن في طعنه. نهتك جدرانه لنستمرئ الاحمرار وهو يستحيل زنخة لا تنفع في التَّخفيف منها كل العطور الصِّناعية المشبوهة.

«**لا يمكن التغيير والبكاء بنفس اللغة**» هكذا يقرر صاحب المحاكمة، كان يجفف دموعه على جنسه البشري، لأنّه اختار أن يغيِّر من المقولات الجاهزة. أن يقلق بني جنسه بلغة لا تقبل الدموع، تكتب على ورق لا يستخدم لمسح المذروف أيًّا كان.

إنها أيام العبور، بقدرة الشعر، بالإخلاص لماهيته، وهبوبه.

أن نقرأ كافكا معناه أن يكون بحوزتنا ديوان رياض الصالح الحسين، ليخفف علينا هول الصَّدمة.

فبينما كان كافكا، يكتب الانمساخ. ويصوِّر بفذاذة كيف يتحوَّل الإنسان إلى حشرة مخاطية ببشرة قشرية تثير التّقزز، وينتهي مكنوسًا بمجرود خدم الوقت.

كانت الحرب العالمية الثانية تنتظر على الباب. لتتحول أوروبا إلى مسخ أعمى يدمر نفسه. وهنا يستعرُّ السؤال الكبير. إلى أيِّ مدى يمكن تأخير الحتمي؟ يجيب كافكا:

ليس من الضروري أن تقبلَ كل شيءٍ على أنّه صحيح، بل ينبغي عليكَ أن تقبله فقط لأنه ضروري.

كم متحوّل يعيش بيننا الآن؟ منذ أن بشَّر كافكا أن الانمساخ ليس إلى رتبة واحدة أدنى بالمنزلة كما كنا نظن، بل إلى هذا اللامتوقع الخفيف الذي يمكن معسه بلا ندم كثير، إلى حشرة استطاعت التحايل على كل السموم التي ابتكرناها، وأصرت على مشاركتنا غرف المؤن حيث نقتات.

لو أردت أن أسمي بشجاعة كم انمساخًا قابلت في حياتي الفانية القصيرة المحصورة بين أجيج الكتب، والرغبات الخائفة بتسمية الأصدقاء بأسماء الحشرات. لما اتسع لي الوقت. فقد جنبني كافكا أهم علامات الانمساخ أن أخضع لروتين يومي يجترُّني، وراتب شهري يكافئني على خيانتي لإنسانيتي، فطوبى للعاطلين عن العمل أينما كانوا.

في قصته تقرير إلى الأكاديمية يتحوَّل القرد الخاضع للتجارب في لحظة طيش علمية إلى إنسان، في انمساخ مذهل.

وفي رواية التحول الانمساخ : يتحول غريغوري سامبا العامل النشيط ومصدر دخل الأسرة الأوحد، إلى حشرة بستة أرجل بزّقية وقرني استشعار نبتا في رأسه.

وفي مستعمرة العقوبات، يتحول صانع ومصمم آلة التعذيب المرعبة المكونة من إبر وشفرات تلامس خلايا الألم في الجسد دون أن تجتازها، إلى ضحية آلته الجهنمية الأولى. لأن عقله المصمم على ابتكار الألم استخسر أن تجرَّبَ بدعته بجسد غير جسده. فينمسخ ويتماهى مع آلته.

ثلاث تحولات كبرى رصدها كافكا، في لحظات الإنسان المغرور المعزز بكل وسائل الذود عن نفسه والمبرِّر لكل معاصيه بحقِّ ماهيته، يُسمعنا إياها كافكا، إذا كان الإنسان مخلوقًا على صورة الله، فحين تنمسخ الصورة تُرى ماذا يحصل بالأصل.

هكذا إذًا نقرأ كافكا وسط رطوبة خانقة، ومهرجون يريدون استصدار المزيد من الكريدت كارد.هكذا يُقرأ كافكا وهو يشحِّل عشب السياج وأغصان منمقة تحجب الرؤية لنطل على مستعمرة العقوبات والحكم والمحاكمة والمسخ والوقاد والقلعة وتقرير إلى الأكاديمية. ونجد أنفسنا جميعًا أسرى في سجن صنعناه بأيادينا بعد أن ننجز كل ذلك. نجلس فوق كتلة هلامية من المسوخ والوجوه والقلق المتجلِّد والفؤوس التي حطَّمت الجليد. ويبعث كل واحد فينا رسالة إلى الوالد. لم يقل الأب. لأن رسالة الأب المخففة لن تكون أقل من كلمات أوديب. بل إلى الوالد نفقأ بها عيني الوالد المتوحشتين نمسخه إنسانًا. كيف أصبحت الدنيا زرقاء أمام النافذة، العينين الصاحيتين تمامًا؟ كيف أحرق كل كتبه قبل رواية الحكم؟ لسبب يبرّره في مذكراته السّاحرة، «**إن جميع الأشياء التي تخطر على بالي لا تأتي انطلاقا من الجذر، إنما من مكان في الوسط**».

فعندما قرأ رواية الحكم أمام جمع من الأصدقاء والمهتمين، في أمسية أدبية أغرورقت عيناه بالدموع، وفي اليوم نفسه كتب في مذكراته مكتشفًا

شيئًا أصيلًا في روحه: **(أن يقينية القصة تتحقق كولادة شيء لا يعلل)**.

ومن هنا يمكن أن نحظى بمفتاح لقراءة كافكا. ونراقب رغبته بردِّ الأشياء والكائنات والمشاعر إلى أصلها. إلى جذرها الحاف الخالي من التعليل ومن مقاييس الخير والشر، والقبول والتصالح أو الرفض والتَّناوش. فهذا لا ينفع مع المطلق الكلي الذي سبر غوره ابن براغ، سليل اليهود التائهين، ربيب القلق والصُّداع والألق.

صاحب الأرق الأخَّاذ، الذي نبش الجثة نفسها ليستخرج منها ما يؤكد هول الإنسان ومصيره المتَّجه إلى الانمساخ. مات وهو يجاهد ليخرج رأسه من الأعماق.

إنّ المسألةَ تتمثَّلُ في الاحتفاظ برأسي عالية ما أمكنَ حتى لا أغرق. ما أصعبَ ذلك! وكم من الجهد يتوجَّبُ عليَّ لأستخرجَه من أعماقي..

أو كما كتبت خطيبته ميلينا يومًا وهي تحاول شرح موقف كافكا لصديقه الأقرب ماكس برود:

أعلمُ أنّه لا يقاومُ الحياة، وإنَّما هذا الشكل من الحياة!.

وداع ربيب الأرق، وداع براغ

أنا قفصٌ يفتِّشُ عن عصفور....

كافكا

اثبت أمام ما تمنحك إياه براغ، در مرة، مرتين في المدينة وستغدو أليفة، لا تتعجل الأجمل، فالمدينة ذات المئة برج والأربعة عشر جسرًا ستمنحك الحسرة على المكان القادم منه.

اهـدأ تفقَّد المدينة على مهل، ولتكن معك خارطة مواقع كافكا. سيقودك إلى متحفه. في آخر الشارع الذهبي، شارع الكيميائيين، فهذه الدكاكين المتراصَّة كانت فكرة الملك فردريك، الذي جمع كل المشعوذين والكيميائيين، وأمرهم أن يحوِّلوا المعادن العادية إلى ذهب. أمضوا سنوات كثيرة دون جدوى. وبأحد هذه المحلات، قطن كافكا في شبابه مع أسرته، في أعلى التل حيث تتطل منه نوافذ على الحدائق الملكية. في نهايتها يقع متحف كافكا، قوس مقنطر وبوابة عليها صورة فرانز. والحرف كاف، الذي أصبح اختصار رمزيًا لكافكا، واحد من أشهر متاحف الكتَّاب وأكثرهم زيارة ما يزيد عن مليون سائح سنويًا.

بالوسط تمثالان باللون الأخضر لعاريين يتبولان في بحرة ماء، الضحكة ستعلو وجهك.

هكذا إذًا لتدخل عالم كافكا في متحفه العجيب عليك أن ترسم ابتسامة على وجهك.

ستطلب منك الموظفة ألّا تستخدم الكاميرات، توعدها خيرًا وأنت تعرف أنك لن تفي بوعدك.

تصعد الدرجات الضيقة المكتنهة بالعتمة، لتصل إلى القاعة الأولى، مصممة ببراعة كمحاكات لعوالم كافكا، تبدو وكأنك تدخل في سراديب عقله المخضوض بالضوء والعتمة. الصداع والأرق رافقاه طويلًا ولم يكن قد اخترع البنادول بعد.

أدراج سلالم، تقود من متاهة إلى أخرى، وطاولات زجاجية معزولة، بها الكثير من المخطوطات المكتوبة بخط يده، صناديق على شكل أدراج معظمها مقفل، ثروة قومية لا تقدر بثمن، رسومات كان يخربشها، بقلم الفحم الأسود على وجه الورق الشديد البياض، بضع ممتلكاته شخصية، ولا ننسى أن كافكا كان ممنوعًا طوال الحقبة الشيوعية بوصفه كاتبًا عدميًا لا يتمثل قيم الواقعية الاشتراكية، كاتب لا يحمل فرح الاشتراكية ولا التفاؤل بروح الجماهير، لا يؤمن بسعادة الجماعة، بل يكرس اليأس في قلب الفرد، هذه كانت تهمته.

حاربته اتحادات الكتاب الشيوعية، وأعادت له براغ الاعتبار بعد الانتصار.

أما الغرفة التي ستكون مدهشة حقًا، فهي الغرفة التي تحتوي التصميم التخيلي، لآلة التعذيب التي تخيلها في مستعمرة العقوبات، استطاع الفنان أن يحول توصيف كافكا الدقيق لتلك الآلة الجهنمية وآلية عملها إلى تمثال متجسد، لو قيض لفروع التعذيب أن تستفيد من مخيلته لن يصمد أمامهم بشري دون أن ينتزعوا منه اعترافًا.

وقفنا نتأمل الآلة الجهنمية التي كانت تمثل تصويرًا دقيقًا لرسمه لها في روايته مستعمرة العقوبات.

المتحف لمن قرأ كافكا ويعرف بعضًا من نتف حياته أليف كثيرًا، مدهش وبارع، خاص جدًا وتجربة دخوله واحدة من التذكارات الرائعة التي تنحفر طويلًا في البال. عليك التحلي بالصبر والهدوء في عوالم كافكا حتى تبدأ بمنحك نفسها، فقلة الصبر ستجعل كل إرثه بلا معنى لديك.

على كل هو يلخص بذكاء هذا الداء الإنساني في مذكراته. «**لعل هناك خطيئةً رئيسةً وحيدةً هي: نفادُ الصبر. فِبسببِ نفادِنا للصَّبر طُردنا من الجنة، وبسببِ نفادِ الصَّبرِ، لا يسعُنا أن نعودَ إليها**».

ساعة ونصف كافية لتَشرب بصور مجسدة ببراعة من عوالمه الغرائبية، وحين تخرج ستشعر أنك نجوت، لم تنمسخ لم تنتحر، لم تلتهمك آلة التعذيب لم يأتِ مخبران لمحاكمتك على جريمة لم تقترفها، لم تلقِّم التنور بعض أعضائك ليلتهمك الموقد، و لم تصاب بالسل، لم تتحطم من الكوابيس. ها أنت قد نجوت على ما يبدو ولكن **هنالك أشياءٌ لا يستطيع المرءُ تحقيقها إلا بقفزة متعمَّدة إلى الاتجاه المعاكس!** كما يقول كافكا.

أن نزور المحل المرافق للمتحف حيث تباع كل أنواع التذكارات التي تخصه. نكتري بعضًا منها، ونقفز إلى الاتجاه المعاكس لكافكا.

ولم يكن المعاكس له سوى براغ نفسها.

قدمان من غيم تخطوان المسافة الأخيرة

النهاية تبرر أي شر.

سوفكليس

في المدينة المرصوصة بالحكايات العابقة بالأسرار، لا بد من قطع جسر القديسين أو جسر تشارلز، واحد من أشهر جسور العالم وأكثرها غرابة.

وهو أحد المواقع الأثرية العالمية المحمية من قبل اليونسكو ومعتنى به من قبل الحكومة والناس هو مصدر فخر التشيك، يحملك تشارلز وجسره من ساحة المدينة القديمة إلى ساحة «المالا سترانا». ستسأل ما الذي يختلفه هذا الجسر عن أي جسر آخر في العالم، وجسور براغ الثلاثة عشر الباقية. سيكون تاريخه حاضرًا مع كل دعسة على حجارته العريقة رمزًا للقوة والخصوصية التي تفتك بك أينما نظرت في براغ، على جانبيه انتصب واحد وثلاثون تمثالًا لقديسي براغ. بالحقيقة نسخ عنهم، فالنسخ الأصلية محفوظة في المتحف الوطني.

في أيام الضباب والبرد سيكون الدخول إلى الجسر وعبوره بمثابة، شعور ينتمي إلى الميتافيزيقيا. كأنك تعبر برزخ الحياة والموت. في متحف مفتوح على السماء، إنه بوابة براغ إلى العدم والآخرة والحياة والدهشة معًا.

جسر تشارلز الملك الذي يعود له الفضل في تشييده كان يسمى سابقًا بجسر براغ أو الجسر الحجري. إحدى الروايات المرتبطة بتاريخ الجسر تتحدث عن طريقة بنائه، فتزعم بأن المهندس المسؤول قرر خلط المواد الكلسية والترابية الرئيسية بالبيض والنبيذ لكي يصبح الجسر أقوى وأصلب. ولأنه لم يكن في براغ في تلك الفترة ما يكفي من البيض، فقد أمر الملك بجلبه من كافة المدن والقرى التشيكية. إلا أن سكان بعض المناطق أرسلوا البيض المسلوق بدلًا من النيء، خوفًا من أن ينكسر خلال عملية النقل، في حين أرسل مواطنون آخرون الجبن وأنواعًا من اللبن ومنتجات مزارعهم. وبرغم هذا الخليط العجيب الغريب إلا أن بعض المؤرخين يعتقدون بأن جسر كارل قد بني بطريقة متكاملة ووطنية فعلًا، لأن أساساته احتوت على أبرز مكونات الاقتصاد التشيكي في تلك الفترة يبلغ طوله 516 مترًا، أما عرضه فتسعة أمتار ونصف ويرتفع عن سطح مياه نهر الفالتافا 13 مترًا وتروي إحدى الأساطير التشيكية بأنه يوجد في مكان ما منه سيف سحري لأحد الفرسان التشيك، وأنه في حال تردي الأوضاع في البلاد بشكل خطير، فإن فاتسلاف المقدس سيأتي إليه على رأس كوكبة من الفرسان، وعندما يدق حصانه بقدمه أرض الجسر فإن السيف سيخرج ويبيد الأعداء .

وتعرض الجسر في عام 1890 للتخريب بسبب فيضان كبير وتم العثور بالفعل على سيف لكن الصدأ كان يأكله. ويقول المصدقون لهذه الأسطورة بأن سيف الفارس برونتسفيك لا يزال موجودًا في الجسر وما تم العثور عليه ليس هو السيف المنشود.

وبغض النظر عن وجود السيف أو عدمه فالجسر يمثل تحفة فنية رائعة تجعل زوار براغ من الأجانب والسكان المحليين على حد سواء، يشعرون

بلحظات خاصة وهم يتأملون حجارته وأقواسه وركائزه وتماثيله وبرجيه المقامين على طرفيه، والإطلالة الجميلة التي يقدمها على ما حوله من فوق، والأهم وجود كل هؤلاء القديسين وتماثيلهم على جانبيه. غير أن هناك مكان شاغر لأحدهم. فمن هو هذا القديس المطرود؟.

إنه الأسقفي «يان نابومتسكي» تم رمي تمثاله في النهر في عام 1393 لأنه رفض الإفصاح عن سر الملكة «جوفيا» إلى الملك «فاتسلاف الرابع». لكن في أواسط القرن 18 تم إعلانه قديسًا. ولكنهم لم يعيدوه إلى الجسر. وبدل من ذلك تم تثبيت صليب صغير من النحاس يحمل خمسة نجوم علي الدرابزين الحجري حسب المعتقدات، يمكن لكل من يضع يده علي الصليب بحيث يلمس كل إصبع إحدى نجومه الخمسة، تتحقق له كل أحلامه، لذلك لا غرابة أن تجد بشكل دائم أكبر تجمع للسياح بالقرب من التمثال المفقود، وهم يضعون أصابعهم الخمسة على المكان ويغلقون أعينهم مطلقين تمنياتهم علَّها تتحقق، طبعًا لم أفوت أن ألمس المكان وأشعر ببرودة النحاس وحرارة التمني.

أما باقي المدينة، فقط ارمِ نفسك داخل الترام وهو سيصحبك بهدوء لتشبع فضولك، وتدور بين أَحيائها، وتتمتع بتجربة لا مثيل لها، وبالقرب من القلعة نهرب من الترام، ونصعد باتجاهها. قليل من الضباب بدأ يدب على المدينة. يتراءى القصر من بعيد، ثمة وصف في رواية كافكا «القلعة» قريب تمامًا من هذا المشهد.

«إنَّ تلة القصرِ محجوبة عنا، يلفها الليل والضباب في ستاره، بل وليست هناك من ومضة ضوء لتقول أن قصرًا هناك. على الجسر الخشبي بين القرية والطريق العام أوقفك طويلًا مُحدقًا في الفراغ الوهمي العائم فوق رأسه».

نعم ثمة فراغ عائم يلتهم رأسي، أنا أحاول جاهدًا أن أفسر كل ما حولي، معرفة نية هذا الطريق إلى أين سيفضي بي.

علي أن أخرج من عوالم كافكا بأي ثمن، وإلّا لن يجدي كل المشي ولا من داعٍ له، لا بد من الاستجارة بالتاريخ المجرد..

يعود تاريخ بناء القلعة إلى عام 870 حيث بناها الأمير بورجيفوي من عائلة برشيمسل غير أنها شهدت تغييرات كثيرة أخرى لاحقًا، من أهمها التغييرات التي قام بها الملك كارل الرابع .وتضم عددًا من الأبنية التابعة للرئاسة التشيكية، كاتدرائية القديس فيت، وبازيلكا ما يسمى بالقصر الملكي الصغير، وقصر لوبكوفيتس وقصر روزينبورغ والقصر الملكي الجديد وبرج داليبور والشارع الذهبي ومتحف العرائس والمنزل الأعلى لبورغراف ومدرسة للفروسية ومربط خيل قيصري بالإضافة إلى وادي مائي. نطلُّ على براغ التي يقطنها ما يزيد عن المليون ومئتي ألف نسمة، من الأعلى لا نستعمل الكاميرا، نترك أعيننا تتشرب المدينة الأقدم في أوروبا، ونتنفس الحسرة.

ندور حول القلعة، ندخل حديقة الأشجارالمنتقاة من غابات العالم وهنا أهمس للحطاب أن يمهلني الوقت كي أتنفس المزيد، أرغي من التعب ولا أستطيع التوقف، أتخلص من كثافة الفكرة، أمسح المهمات من عقلي أحرر روحي من العطش، نخبُّ في الشوارع بلا هدف نتماهى مع الطرق المعبدة بأحجار مرصوصة، ندخل القصر الذي يفتح أبوابه الرئيس معظم أيام السنة للزوار، نشاهد تبديل الحرس بألوانهم السماوية ووجوههم الشديدة البياض والشقار، نُسلم أرجلنا للموج البشري يتقاذفنا حيث يمشون، وشخصيًا أتفرج ببلاهة، من لا يعرف على ماذا.

العظمة في كل شيء الأبهة، الإعجاز المعماري...ساعتين وكل شيء أصبح روتينًا، هكذا يحدث حين نطمئن للجمال، ونعتاده ولا نفهم لماذا صاغوه بهذه البراعة!.

أترك التلة الأفخم في العالم، وأنزل رويدًا رويدًا بهدوء المشبع بجرعة جمال زائدة، قدماي تطالبان بالتوقف، لكن المدينة تدفعني قدمًا. فإن كان يجب أن أرتاح في مكان ما فليكن هذا. مقهى فراز كافكا، حافظ على نفسه بطاولته وكراسيه العتيقة وجدرانه المهشرة بفعل الزمن. يخبرني النادل فيه أن عمر هذا المقهى أكثر من 150 عامًا، وأن كافكا كان من رواده، لا أجد سوى أن أصدقه.

ألتقط بعضًا من الصور، أتخدر من التعب والرائحة المختزنة المعتقة من التبغ القديم والرطوبة. أتزود بجرعة جديدة من النشاط وأعاود تفقد الأماكن وقياس الوقت المتبقي قبل اللحاق بالطائرة.

آه هناك الكثير من المثير ما زال بعيدًا عني، ولكن أصابتني حالة من الفزع. فمن المستحيل المغادرة قبل زيارة مكتبة براغ الموجودة في أكبر وأضخم دير في أوروبا.

وصلناه بسهولة ويسر، على جدرانه كان هناك بروشور للينين عاري الصدر. مع إعلان تجاري لنزع شعر الصدر للرجال، هكذا يعاملون الرفيق لينين اليوم!.

في الداخل نتقدم من الردهة باتجاه المكتبة المؤثثة من القرن السادس عشر، فتخترق خياشيم الزائر الحائر روائح الكتب المقسَّمة على قاعات مختلفة، للفن والتاريخ والموسيقى والأدب، وقفنا بحالة من الذهول في بهو الفلسفة. 32 مترًا طولًا وبارتفاع أربع أمتار من الجانبين مع رسومات

تعرض التاريخ الروحي للإنسان. كل ما كتبه الإنسان عن ذلك السؤال البسيط الموارب الغريب من أنا؟ هنا كل مغامرات العقل والروح وتاريخ الشك واليقين مكدسة في هذه القاعة. إذًا هنا ستكون الفلسفة ببساطة هي فن التحدث عن التفاحة وليس أكلها؟ عن الموت عن الحب عن اللانهائي والأبدي الزمن والعقل واللغة. فالفلسفة تبدأ من مكان توقف الفكر.

نلقي نظرة على غرفة اللاهوت المكدسة بضعف ما في الغرف المجاورة، كتب سماوية لكل ما أنتجه الإنسان من ديانات. ما يزيد عن سبعين ألف ديانة وطائفة موجودة في العالم، فهذا التراث الضخم محفوظ هنا لمنع الذاكرة البشرية من السهو والنسيان. كل ما فعلناه هو ممارسة دهشة الصمت ونحن نفكر كم هو غني هذا الإرث الإنساني العجيب في بحثه عن الدين، وكم هو فقير من يظن إنه الوحيد الذي يملك الحقيقة.

لم يبقَ سوى أن نسارع إلى الفندق، فقد حان الوقت أخيرًا للمغادرة، وثمة شاعر آخر في مدينة أخرى ينتظر، لا أنظر للوراء، لا أحزن امتلاء تامًا، سلام داخلي كبير وشعور نادر بالرضى. وإلى قلق آخر نفرد جناحي الوقت ونطير.

ملحق صور كافكا





كاميرتي على مدخل المتحف



ساعة براغ



آلة التعذيب في متحفه



قبره



جسر القديسين



براغ من القلعة



علامته التجارية

الفصل الثالث

من براغ إلى لشبونة
أربع ساعات بالطائرة بعيد عن الأرض
قريب من الفكرة

هكذا أكتب، بشكل جيد أو رديء،
مصيبًا فيما يسعى إليه قولي
أو مخطئًا، أتعثر هنا، أنهض هناك،
مواصلًا طريقي، طريق أعمى عنيد.

بيْسوّا

تركنا براغ في ليل صافي النجوم، تعبر في سمائها النوارس وتمور بالحكايات، وأقلعنا من مطارها عصرًا. لم تتأخر طائرة الإيزي غيت في براغ، وجدت مقعدي بجوار منفذ الطوارئ، بينما مقعد رينا في الصف الأمامي، أخبرتنا المضيفة أنه يمكن التبديل بين المقاعد حين يكتمل حضور الركاب.

فكان من نصيبي أن يشرح لي الطاقم، أنني سأكون المسؤول عن فتح الباب في حال حدوث أي مكروه للطائرة، وأخبرتني المضيفة فائقة

الجمال أن عليَّ أن أتعرَّف على كيفية فتح الباب للهروب إذا ما اقتضى الأمر، وأشارت إلى القبضة الحمراء التي عليَّ أن أتعامل معها. شرحت لي أن الأمر بسيط، يحتاج فقط ألا أفكر باللعب بالمقبض أثناء تحليق الطائرة، لأن هذا سيحملني مسؤولية تصل إلى الحبس، وأن الطاقم سيكون حاضرًا لمساعدتي. قلت لها: هذا يعني أنني سأكون الرجل الثاني في الطائرة بعد الكابتن؟.

أجابت: نعم.

سألتها إن كنت أستطيع أن أقود الطائرة (دورة) في الجو.

قالت: طبعًا تستطيع. وتابعت باقي التعليمات الصَّارمة.

كنت أهز رأسي راسمًا ابتسامة مخضَّبة بالودِّ الكثيف، موافقًا على كل ما تطلبه، من دون أن أفهم نصف ما تقوله. كل شيء أصبح جاهزًا وأقلعت الطائرة مصدرة طرطقة وكأن جمعًا من الهياكل العظمية يمارس الرقص المجنون على سطح من ألواح الزِّنك. بقيت أنظر إلى الركاب حولي، ثمة ارتجاجاتٌ وتموجاتٌ تقتحم أجسادهم، وبخاصة من كدَّس منهم بضع أرطال من الدهن الزائد، جاعلة أجسامهم ترتعش وكأن تيارًا من الكهرباء أوصل إليها.

مرة أخرى ألعن بسرِّي الطيران الرَّخيص. ففعلت ما أفعله عادة حين تقلع الطائرة... فعلت: لا شيء.

خفَّ الضَّجيج حين ارتفعت هذه الخردة إلى أعلى من ثمانية آلاف قدم عن الأرض. وهنا تصبح كل الطائرات واحدة. سأقول إن شيئًا من الرعب انتابني، يشبه تلك اللحظة يوم استقليت طائرة كيش. وإن كان من المناسب فعلًا تذكُّر تلك الرحلة العجيبة، من دبي إلى جزيرة كيش

الإيرانية. بحوزتي ما خططته عن تلك الرحلة، إنها لمناسَبةٌ أن أتسلى باستعادة تلك الذِّكرى، وقراءة ما كتبته حينها، كنوع من إكساء الوقت، أوصلت السَّماعات إلى أذني، أستمع إلى موسيقى الريكي علَّها تساعدني على الاسترخاء، وتنقية العقل، وتبييض الوعي لقطع مسافة الأربع ساعات القادمة التي بدت وكأنها لن تنقضي أبدًا.

رويدًا سرحت بتلك الرحلة العجيبة التي حملتني ذات مرة إلى كيش.

«كيش»

ربما في يوم،
فيما وراء الأيام،
تعثر على ما تُريد لأنك تُريده

بيْسوّا

ـ **عليك الذهاب إلى جزيرة كيش.**

لفظها ببساطة قدريّة، هامسة، هادئة، فيها الكثير من الاعتيادية واللؤم.

ـ **كيش، ما هذه الكيش؟** سألت بهدوء الجاهل المتحفز.

ـ تبرَّم قليلًا وأضاف: **المكان المثالي لاستبدال الفيزا؛ أفضل من السفر إلى بلدك، فهي قريبة والأمر لا يحتاج إلا ليوم واحد.**

وأضاف ـ **على كلٍّ، راح تنبسط فيها.** وناولني الحجز، غامزًا بعينه مشيرًا إلى فتاة روسية دخلت مكتب حجوزات الطيران للتّو.

ـ **أين تقع كيش هذه؟.**

ـ **هنا قريبة لا تبعد سوى نصف ساعة وتصل.**

حملت تذكرتي وقفلت عائدًا، أستعدُّ لامتطاء الطائرة للمرة الثانية في حياتي.

الأولى كانت من دمشق إلى دبي، والثانية من دبي إلى كيش. ومن دون أدنى شك، حملت وقتها كما أفعل اليوم ديوان رياض الصالح الحسين معي، فهو الرفيق الأجمل على عتبات الانتظار.

الداخل إلى مبنى مطار دبي رقم 2، في ذلك الوقت، كان لا بدَّ وأن يجد طابورًا خاصًا بجزيرة كيش التَّابعة لإيران؛ يمكن الاستدلال على الركاب من الحقيبة التي لا تعدو كونها حقيبة حاجات ليوم واحد. ثم هناك رتل طويل آخر من جميع المشارب والجنسيات، يستثنى منه رعايا دول الخليج والولايات المتحدة والدول الغربية، نظرًا لأنهم لا يحتاجون إلى فيزا لزيارة الإمارة المعجزة.

تتوحد الغاية من السفر عند الجميع، في رحلة هدفها تغيير وضع الفيزا، أو تجديدها، ومن ثم العودة بحوزة ورقة أخرى في اليد ممهورة بختم برَّاق من إدارة الجنسية والإقامة في الإمارات.

جزيرة كيش، هي الوجهة المفضلة للمضطرين إلى مغادرة الإمارات، لقربها وانخفاض تكلفة السفر إليها، 500 درهم إماراتي للرحلة، تتضمن ليلة للإقامة في فندق الفارابي، وهو مأوى أقرب ما يكون إلى «غيتو» للانتظار يحتشد المسافرون في طوابير تتشكل بين ثلاث إلى خمس مرات في اليوم. يختارون بين إحدى الجزيرتين، قشم أو كيش.

وجوه ملفوحة بالحيرة. مقفلة على تساؤل مكظوم: أين نذهب، ولماذا نذهب؟ ثم خوف مبهم من الوقوع في فخ المجهول.

بعد عدة أسئلة ومحاولات لحزر مهن شركاء الرِّحلة، مدفوعًا بالفضول والسعي إلى الاطمئنان، وجدت نفسي أقف في طابور يضم مندوبي مبيعات، رجل أعمال «بجورب مثقوب»، صغار كسبة، نادلات،

محلل نظم معلومات، ممرضًا لا تبدو علامات الشفقة على وجهه الأقرب إلى وجه قصَّاب لحوم، سماسرة بورصة وعقارات، حالمات بالزواج من يَعْربي ثري، راقصات شرقيات لا يعرفن العربية، طالبي رزق فحسب، محاسبي شركات مع آلات حاسبة، سكرتيرات من شرق آسيا يعملن في المساج في المساء، مصمم مواقع إلكترونية، مدرِّب أيروبيك، سائس خيل، منظف مخلفات بشرية، قراصنة أقراص مضغوطة، بائعي مواد تجميل، سائق قاطرة ومقطورة، مغني نواد ليلية، مهندس صناعات غذائية، مدرِّس رياضيات، معد برامج تلفزيونية، وعربيًا بشهادة دكتوراه في المسرح من بلغاريا...

حشد من الجنسيات تتوزع على جهات الأرض الأربع: صينيون، أفغان، عرب عاربة ومستعربة، هنود، بنغاليون، أوروبيون شرقيون، فلبينيون، وأرجنتيني من جذور عربية.

اجتزنا الإجراءات الأولى، توسَّدنا قاعة الانتظار بعد أن قمنا بلفة أو لفتين في المنطقة الحرَّة، وغالبًا من دون أن نشتري شيئًا يُذكر. تتأخر الطائرة أربع ساعات، فتتراخى الأجساد، يفترش بعضنا المكان. يتوسد الآخرون الأرض، يدور رجل الأعمال حاملًا حقيبة «سامسونايت» تقليد بين المقهى والمقعد، يخلع حذاءه ليريح قدمه، فيظهر جورب قدمه اليسرى المخزوق. في المطار، غالبًا ما يحدث التمرين الأول على الانتظار.

نداء نائس الصوت، يخبرنا أن الطائرة جاهزة للإقلاع. تدافعنا قليلًا، وخرجنا إلى أرض المطار الغارق برطوبة خانقة كانت كومة خردة؛ من فرط اهتزازها تبدو وكأنها ترقص، فقط المروحة الهادرة على الجناحين

الكالحين هي ما يؤكد أن هذا الشيء الجاثم هو طائرة. إنها من مخلفات الاتحاد السوفييتي من نوع توبوليف 154، يبدأ الشعور بالخوف، ولكن تتلبَّس أكثرنا رباطة الجأش.

بالطبع ستبدو مقارنتها بالطائرة الوسيمة للإيزي غيت التي أستقلها الآن غير عادلة من حيث الشكل، ولكن ثمة شيء مشترك بين هذا النوع المثير من الماكينات. ومع الدخول العشوائي والجلوس أينما وُجد مقعد، يكتمل مشهد الرعب، فالطاقم لا يتحدث إلا الفارسية. طاقم من وجوه معطوبة، خالية من التكافل والتعاضد الذي تقتضيه مثل هذه اللحظات الحاسمة من التاريخ الشخصي لكل من أودى به القدر إلى هنا. دقائق معدودات.. تتحرك (الماكينة)! معلنة التوجه إلى جزيرة (كيش) أو جزيرة (قيس) التسمية العربية للجزيرة، وأن الوصول يحتاج إلي عشرين دقيقة، من دون أن يضيف الكابتن: إنها عشرون دقيقة من الرعب الخالص، تاركًا للمسافرين اكتشافها ثانية بثانية! يلفُّ الصمت المكان، لا تقطعه سوى تمتمات لم تكن متجانسة: سورة الكرسي ودعاء السفر، تراتيل هندوسية، إشارات الصليب والدعاء للعذراء مريم، تعويذات بوذا وصلوات كريشنا، ميثاق ولي الزمان.. علَّ هذا الحشد من الأتقياء، يُقنع هذه الخردة بألا تفكر بالاستراحة خلال العشرين دقيقة القادمة! وبخاصة أن مشهد إحدى الطائرات، لنفس الرحلة، التي تعرضت لعطل وتناثر حطامها قبل سنوات، يحضر بقوة في مخيلة ركاب (السرفيس) الجوي الآخذ بالارتفاع. وتتحول الطائرة إلي مكان يجتمع فيه المؤمنون من كل بقاع العالم، يطلبون العفو والمغفرة عن الذنوب المقصودة وغير المقصودة، وتزداد شطحات الإيمان طردًا مع كلِّ مطبِّ هوائي يمتحن فيه صبرهم وقدرتهم على ضبط غثيانهم.

تتقطع الصلوات وتصبح أقرب للتهجد برفقة معزوفات انصفاق واهتزاز أبواب النجاة وهياكل المقاعد البالية وغياب أحزمة الأمان التالفة. ليتفاجأ المؤمنون ـ بعد عشر دقائق ـ بانتصاب المضيفة بوجهها الفارسي البارد توزع عليهم عنوةً قطعة من الكيك، وعلبة عصير مذاقها يوحي بالعطش. وقد لفَّها الملل والتَّأفف، لتبدأ برمي الوجبات على المقاعد كلاعبة كرة سلَّة لا تتقن التصويب!.

يُقدمُ البعض على التهامها كآخر وجبة في الحياة، ويشيحُها الآخرون جانبًا خوفًا من أن تكون هذه النفايات هي آخر وجبة في الحياة. شخصيًا التهمت الوجبة، وفعلت ما أفعله عادة في مثل هذه المواقف، فعلت: لا شيء.

تهبط (الماكينة) رويدًا رويدًا. تتلبَّس الجميع رغبة سرية في بقاء الطائرة في الجو، فهو أرحم من هذا الهبوط البهلواني، ويسلِّم الجميع أمرهم لله، حتى أشدَّ الملحدين تطرفًا! وتتوجه الدعوات إلى أن يكون سائق الطائرة بكامل عافيته، كي يهبط في المكان المناسب!.. تلامس العجلات المدرج، وينطلق «كونشيرتو» الضّوضاء، ضجيج وأزيز، طرقٌ ودقٌّ، انصفاقٌ متسارع، كلها علامات حيوية: الطائرة على كوكب الأرض. ينفتح الباب، ويهرول المسافرون منكوشي الشعر مترنحي الخطوات مبتعدين قدر المستطاع عن السُّلم، شاكرين العناية الإلهية على اجتياز المرحلة الأولى بسلام. ممرُّ الرجال يكدسهم في طابور يستردون فيه أنفاسهم، وآخر للنساء يفضي بهنَّ إلى غرفة الاحتشام؛ يخرجنَ منه متشابهات، وقد ارتدين جميعهن أغطيةً زرقاء للرأس. يهمس أحد الرواد القدامي ممن جربوا الزيارة سابقًا، في أذن رجل الأعمال ذي الجورب

المثقوب، فيسارع مذعورًا بنزع ربطة عنقه غير المستحبة في الجمهورية الإسلامية، وينهر الشرطي قارس الملامح «نانو» الفلبيني كي يكف عن التَّقصع ومضغ العلكة، فيتجمَّد مكانه منتظمًا في الصف بعد أن بلع ما كان في فمه. يسألني بعربية مكسَّرة: **هل تزور السيدة زينب في دمشق**؟ فأجبت كاذبًا: **إنني أسكن بالقرب منها**. فرمقني بابتسامة عريضة متواطئة كوني من بلد صديق، خصَّني بها أنا وحسين حين أخبره أنه من جنوب لبنان.

أمّا بقايا تفاصيل الرحلة، لا أريد تذكرها الآن بل محاولة استراق النظر من النافذة إلى لشبونة التي بدأت تتلألأ من تحتنا. ولأكون منصفًا كان هبوط الطيار الفارسي أرحم من هبوط الطيار البرتغالي. ويح الذاكرة، كيف تعتقد وبعد ذلك تتذكر. هكذا قال يومًا، ويليام فولكنر في روايته المدهشة، نور في آب.

وهكذا توارت ذاكرة تلك الأيام التسعة عشر في جزيرة الانتظار، حين وصلنا إلى مطار لشبونة الدولي في أول الليل.

بلا ختم لجوازات السفر دخلنا، لأننا قادمون من بلد يحيا في جنة (التشنغن)، إلى بلد يدفع أثمان جنة اليورو.

على كل لم آتِ إلى هنا لتعرف على فوائد الاتحاد الأوروبي، ولا على الفروقات المذهلة بين دول شديدة القوميَّة والتَّفرد والاندماج والعمومية. بل للقاء فرناندو بيْسوّا وصديق آخر يعيش في لشبونة.

أرض البرتقال السعيد

كل منا يعيش حياتين:
واحدة في الحلم، والأخرى تأخذنا إلى القبر.

بيْسوّا

وجه صديقي البرتغالي أنطونيو في انتظارنا، ابتسامته المشرقة كما هي لم يمسُّها الزمن كثيرًا، والأعوام الثلاثة التي مرَّت نالت من شعره، صلعة لطيفة أحالته إلى عمر الرجولة.

تبادلنا العناق، قال: سأقبلك على الطريقة العربية ثلاث قبلات على الخدِّ و«حبة خشم» على طريقة الإمارات. عرفته على شريكتي بالرحلة ومضينا إلى الفندق المحجوز سلفًا، تكرش هذا الفنان الساحر قليلًا ولكن ذلك الودُّ الأصيل مازال كما هو من أوّل يوم عرفته، وعرفني على ذلك الاسم الغامض الذي لم أسمع به من قبل. فيرناندو بيْسوّا.

التقينا سابقًا في الإمارات، من الأشخاص القلائل الذين لا تمحوهم الذَّاكرة المؤقتة في المدينة السريعة بكل شيء. تآخينا لمدة عام، عملنا معًا في شركة للإنتاج التلفزيوني مختصة بالأنيميشن، أنا كمعد ومنتج وهو كمخرج فني مختص بصناعة الرسوم المتحررة والمتحركة معًا.

كان قد وصل حديثًا إلى دبي في أول زيارة له لدولة عربية.

التقيته في الذكرى السَّنوية لأحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، وكنا نسأل بعضنا، أين كنت في تلك اللحظة وماذا كنت تفعل؟.

سؤال كنت أحبُّ استطلاعه عندما انشده الكوكب أمام حطام البرجين الجبارين. فأجاب بأنّه كان في باريس مع مجموعة من أصدقائه؟ وانفتح بعدها نوع من الحديث الذي لم ينته.

سألني بخجل بعد أن أخذني جانبًا: **كيف يفكر العرب؟ فأنا لا أريد أن أصطدم مع أحد.**

فطلبت منه أن يأتي إلى كمبيوتري لأريه شيئًا.

قلت له: الفنُّ هو من يملك الإجابات. الفنّانون هم الأقدر على إعطائك بعضًا من حقيقة واقع حالنا أولًا.

كنت أريه أعمال ناجي العلي، وشرحت له عن حنظلة، وتصفحنا معًا بعضًا من رسوماته الثَّمينة، ولما وصلنا إلى لوحة شاهدة القبر المكتوب عليها «أنا أفكر إذًا أنا موجود»، ضحك أنطونيو بعنف، وطلب تلك اللوحة، ثم قام بترجمتها إلى الإنكليزية وأرسلها لأصدقائه الأوروبيين في ألمانيا والبرتغال وأسبانيا وفرنسا. أسمعته بعضًا من الموسيقا العربية القديمة، نينوى ومعزوفات الأرمن السوريين، أم كلثوم وفيروز. وحدثته عن بعض الشعر العربي.

وإذ به يلفظ اسم فيرناندو بيْسوّا. كانت المرة الأولى التي أسمع به، لم يكن قد ترجم بعد كما يجب، يعرفه بعض العرب ممن يتقنون الإسبانية والفرنسية. وبعدها عرَّفني على موسيقا (الفادو). وحين استمعت إلى إيميليا غونزاليس، أم كلثوم البرتغال، هبَّت عليَّ قوةٌ من الفرح العظيم.

بعد هذه الحادثة بسنوات ها أنا برفقة أنطونيو ثانية، في قلب مدينته، قاصدا بيْسوّا، ومن سيارته تصدح أغنية لإيميليا غونزاليس.

يحدِّثني أنطونيو عن البرتغال ويقول: البعض يظنُّ أن تسميتها عربية والعرب هم من أطلقوا على هذه البلاد اسمها الذي يعني «أرض البرتقال». ولكن أغلب الظن أن التسمية أقدم من ذلك، «بورتو غال» تعني مرفأ بلاد الغال، وبلاد الغال هي ما يعرف بفرنسا حاليًا. تمامًا مثل «بورتو ريكو» أي: مرفأ ريكو.

حملنا بسيارته إلى الفندق. بالقرب من ميدان دوم بدرو بمنطقة روسي، وضعنا الحقائب، واعدًا أنطونيو أن أكون جاهزًا بعد ساعة لأقوم بقشر ما علق من براغ على جسدي بالليفة والصابون. أودعت كتب كافكا في الجيب الداخلي للحقيبة وأخرجت ما تيسر من بيْسوّا وأهمها تلك الرواية القصيرة المثيرة بمقدمتها الرائعة التي ترجمها اسكندر حبش عن الأيام الثلاث الأخيرة لمضيفي في لشبونة. خفَّ الصُّداع لكنه لم ينتهِ، قضيت على ما تبقى منه بحبتي باندول إكسترا، الصديق الأوفى للرأس المسافر. تركت رينا تعد العدة للغد وذهبت للقاء صديقي القديم.

نزلت إلى سيارة أنطونيو أمام الفندق، فحملني فورًا إلى حي «بايرو ألتو» الحي الصَّاخب اللاهب الذي لا ينام، وبجوار بيت الفادو، أحتسينا بعضًا من نبيذ البرتغال الشهير بورتو. أخذني في الأزقة القديمة، حيث تتحول البيوت إلى مطاعم شعبية والجمهور على طاولات الأرصفة. من المحيط تُستَقدم الأسماك العجائبية والوجبات البحرية الرَّخيصة الطَّيبة.

من كثرة ما يأكل البرتغاليون الأسماك، ستنبت لهم حراشف وغلاصم، قال أنطونيو وأضاف: أهل البرتغال كائنات برمائية لا يمكن أن يعيشوا إلا

قرب الماء. جاءت وجبة السردين، وليست علب السَّردين سيئة الذِّكر التي نحشوها في أمعائنا في بلدنا؛ بل سمك السَّردين الأصلي المدهش مع صلصاته الغريبة، يتبعه ذلك السِّيخ العامودي الذي يحتوي مجموعة من المشويات القشيرية المشبعة بالفسفور والأوميغا 3.

قلت له: **يومان في لشبونة وسأضيء في الليل.**

ونحن في غمرة الاحتفالية بصداقتنا القديمة وتبادل الأنخاب، دخلت فرقة الفادو فساد الصمت وبدأ الشَّجن. من طقوس الاحترام في المطاعم حين يبدأ المغني بالبوح تتوقف الأحناك عن الطَّحن. وينفتح الفضاء على الأغاني المغموسة برجع حركة الموج، شيء من الحزن نعم، شيء من الألم نعم، شيء عن الهجران والغياب نعم، شيء من الأمل نعم هذا هو الفادو كما أحسسته.

حاول أنطونيو أن يترجم لي بعضًا من المعاني قلت له: لا عليك دعنا نسمع. انتهت الوصلة الأولى، عاد رويدًا صوت ارتطام الملاعق والأشواك والسكاكين بالصحون ليتابع الساهرون المجزرة بالحيوانات البحرية المشوية والمسلوقة والمقلية بلا رحمة. وحده النبيذ يعيد تشكيل الفادو على شكل مدندنات لا تتوقف.

في الطاولة المجاورة، وجد أنطونيو مجموعة من أصدقائه، اعتذر مني قليلًا، وانضمّ إليهم. فتحت دفتري الصغير، بحثت عن القلم حتى وجدته. كم هومخيّبٌ ألّا تجد قلمًا في تلك اللحظة.

لتكتب: **أوامر أصوات الفادو**

افتح...القلب انس الجرح

اجرح الوردة لا تقتطفها

اطفح بالكيل.. فكلٌّ من غارَ ثار

اسرح في البياض، فقوس القزح وجهٌ آخر للسراب

امرح بعفاف الـنشوة، فلـوثـة الأسلاف لا تـفـرق بين مـدح الـغيـاب والاغتياب

اشرح صدرك ولا تدع عنك وزرك

اشلح هذا القناع، فالقاع مظلم ولا أحد يراك

ارمح بعيدًا فكل بقاء هو ظلٌ للفناء

افرح، كعنقود عنب هدَّه التعب، فصاح... «نبيذ»

اقدح ولاعة الأيام بحجر قابيل، إنه تجلي الأصيل في الجليل

«في كل جليل ثمة قابيل وهابيل»

اطرح ما أثقلك فكم من هوى، كبّلك!

اسمح للغيمة أن تعكر الصفو. فالسماء إن صَفَت عَطَّشَتْ

اكدح بالانتظار وكأنه مشوار

افضح السر لا تبح به

اسبح في «عين الحياة» كدمعة واصفح عنها كغريب تلألأ بها قليلًا وانذرف

امنح الحب كل أسرار الجبِّ فيوسف ليس بريئًا إلى هذا الحد

اشلح التصنيف، لا تستخدم الذاكرة أمام الموج

انكح الفكرة، دعك من الشريك

ابرح القارب، امتطِ الرمل فأناشيد الموج لا تعيد من أغرقتهم العاصفة فقط

لا تمزح في القُبلة، فكم من قبلة كُسِرت قافها! ونشف منها الريق

يعود أنطونيو في التوقيت المناسب، لننطلق في الليل، نجوس الدُّروب الخلفية للمدينة البيضاء المليئة بالضوء والفادو، ندخل حي ألفاما حيث ولدت هذه الموسيقى الغريبة منذ أكثر من مئة وخمسين عامًا، أنطونيو يقول إن الفضل فيه يعود للعمال والفقراء البرازيليين الذين تزاوجوا من البرتغاليين، الفقر أنتج الفادو، وكل فقر حزنٌ، وكل حزن يحتاج نهرًا أو بحرًا ليصبح موسيقا، ولكن لشبونة غمسته بالأمل.. ليس مثل الفرات وأغاني الشَّجن الغارقة بالغياب والأنين والعذاب.

متحف للفادو، مدارس للفادو، ومعظم مغنيه من النساء، فهنَّ من ورثن البحارة الذين غادروا ولم يعودوا. مغني الفادو يصبح فاديستا، أي: الذي ينزف ألمًا مصحوبًا بالقيثارة، وأملًا يداعبه الكونترباص، لكنه ليس برتغاليًا خالصًا به مسٌّ عربي وإفريقي، وحزن أكبر من هجران محبٍّ، وألم سيدة على الشاطئ تنتظر حبيبًا.

إنها بجوهرها، مسروقة من تلك الآلام العظيمة للفقراء. لمحنتهم وهم يواجهون القسوة من إخوانهم البشر وليس من القدر. طورتها لشبونة ووضعتها اليونسكو على قائمة التُّراث العالمي. سيجدها السائح بليدة القلب أنها مملة، والعابر الزائر أنها مُلهِمة. سيراها المهاجر أنها ترجمة غير حرفية لأغانيه التي أودعها هناك في بلده. وأجدها تليق بهذه الليلة التي لم نتوقف فيها عن المشي حتى طلع الصباح، فصعد بي أنطونيو إلى أعلى تلة في لشبونة وراقبنا شروقًا مخمرًا بالجمال الخالص..

أيُّ وصفٍ لهذا الشروق سيجرحه، آسف أيها القارىء أعتذر لك لا أستطيع مشاركتك إياه. همست لأنطونيو: **قل لي كم من شروقٍ ساحرٍ رأيت أقول لك كيف عشت..**

أوصلني إلى الفندق. ودَّعته فغالبًا لن أستطيع رؤيته ثانيةً فهو مشغول للغاية، وأنا لدي مهمة علي إنجازها. نمت أربع ساعات كانت كافية أن أجدد نشاطي وأخرج ألتقي برينا وأبدأ بالاستعداد لأتمّ ما جئت لأجله. فلا شيء الآن أهم من ملاقاة فرناندو بيْسوّا الذي ولد عام 1888 ومات في 30 من تشرين ثاني/ نوفمبر 1935.

هل قلت إنَّه مات في نوفمبر...!.

نوفمبر الشعراء

أن أكون شاعرًا ليس ما أطمح إليه،
ولكنها طريقتي كي أكون وحيدًا

بيْسوّا

ترى لماذا الشعراء الذين أحبهم أو معظمهم يموتون في نوفمبر؟.

الموت يحصد أعمار الشعراء في نوفمبر/ تشرين ثاني ليس مصادفة إذًا أنّ:

آرثر رامبو مات يوم 20 نوفمبر.

ورياض الصالح الحسين مات يوم 21 نوفمبر.

فرناندو بيْسوّا مات في 30 نوفمبر.

أورهان ولي مات في 14 نوفمبر.

ولوتريامون مات في 24 نوفمبر.

عزرا باوند مات في 1 نوفمبر.

علي محمد طه مات في 17 نوفمبر.

وإيليا أبو ماضي مات في 24 نوفمبر.

و«استشهد المتنبي» يوم 19 نوفمبر.

والهادي آدم مؤلف أغدًا ألقاك مات في 29 نوفمبر.

وأسلم سعيد عقل الروح في 28 نوفمبر.

وبالطبع توقفت عن البحث ألا يكفي هؤلاء، لنقل إن نوفمبر الشعراء، شهر موتهم، وشهر قيامتهم!.

أما لماذا خصصت المتنبي بأنّه استشهد، لأن بعض الحكايات تقول إنه ببساطة قتل لأنّه حاول أن يكون في لحظة موته مثلما كان في حياته. كان قد هجا فاتكًا الأسدي، فخرج عليه غاضبًا يريد قتله حتى لقيه، فأدار الرَّسن يريد الهرب، فسمع غلامه يقول له: أو لست أنت القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني! فأوقف هربه وعاد ليلاقي مصيره بشجاعة وهو يقول: ويحك يا فتى، قتلتني. ستكون ميتة المتنبي شافعة له كل انتهازيته التي عرف بها في حياته.

أما الآن .. **فمن هو بيْسوّا ؟**

إنه أنطونيو فرناندو نوغيرا دي سيابرا بيْسوّا ولد في حزيران/ يونيو عام 1888 وتوفي 30 تشرين الثاني/ نوفمبر 1935 هو شاعر وكاتب وناقد أدبي ومترجم وفيلسوف برتغالي، ويوصف بأنّه واحد من أهم الشخصيات الأدبية في القرن العشرين، وواحد من أعظم شعراء اللغة البرتغالية.

أتيت لزيارة قبره، أو للِّقاء بحاضنة جثمانه والهمس له أنّ شاعرًا من مدينة مارع المكلومة اليوم في حلب المحروقة في بلدي سوريا الوحيدة كعظمة في فم كلب، اسمه رياض الصالح الحسين، قصير القامة وسيم الوجه، يودُّ أن يلقي التّحية عليك. ويقرئك السَّلام من حيث منبع اللاطمأنينة من وسط القلق البرَّاق، من جذور الجحيم الودود، من مكمن العطب الأول، من جوهر النُّطفة التي ولدت منها خطيئة الحياة وصلاح

الموت من بلاد شرق المتوسط المهموزة على وجه الصحراء والمنسوخة بحبر الموت. وها هي رحلتي إليك في شوطها الأخير.

مكللًا بالصُّداع النَّابض أجلس في لشبونة في ظهيرة صيف حار، أردد مقطعا لبيْسوّا وهو في حالة ائتلاف نادرة مع ورد لشبونة.

كلِّلونيَ بالورد

كلِّلُونيَ بالوردِ،

كلِّلونيَ بالوردِ

بلا رَيْبِ:

بوردٍ ينطفئُ،

على جبينٍ ينطفئُ،

في التّوِّ، عمَّا قليلٍ.

كلِّلونيَ بالوردِ،

بأوراق زائلةٍ

ذاكَ يكفيْ

كان صديقي أنطونيو قد أخبرني أنّ قبر بيْسوّا في لشبونة، في دير الدومينيكيين منذ عام 1988. نقل بالذكرى المئوية لمولده.

وهو لم يعد في مقبرة مفتوحة على الهواء الطَّلق. مسٌّ من الحزن أصابني كيف لهذا الكاتب الذي تحرر من بيْسوّا نفسه أن يُحصَر تحت عامود من رخام، كيف تعدد ليعالج ألم الوحدة؟.

«لأجل ماذا تتطلع أنت إلى المدينة البعيدة؟

روحك هي المدينة البعيدة»

الشعر لديه هو اقتناص طريدة من سرب الزمن، وتحنيطها أو إطلاقها، كأنه فيلق من الشعراء المحملين بكل أنواع الأدوات اللازمة لإدانة الوحدة، فهذه معجزة بيْسوّا.

يقول في اللاطمأنينة: «كتبت قصائد كثيرة

وعليّ بالطبع أن أكتب أخرى

كل قصيدة لي تقول الشيء نفسه

كل قصيدة لي هي شيء مختلف

كل شيء هو طريقة مختلفة لقول نفس الشيء».

كتب الشعر الرَّعوي والمتفعِّل والحر، كتب بأسماء مستعارة لعشرات الشعراء، وفي كل فترة كان يزج اسمًا جديدًا في أتون الشعر البرتغالي.

حتى أفرد له أنطونيو سارماغو رواية كاملة بعنوان «سنة موت ريكاردو يس» تتضمن شخصياته وهي تطارده.

أما هو فقد جعل لكل شاعر منهم ببليوغرافيا خطَّها بنفسه، له عمر ومدينة وموقف وطفولة وحياة خاصة، وجعل لكل اسم مستعار هويَّة وشكل ومهنة، جعل من شعرائه يتناكفون ويخوضون معارك شعرية مع بعضهم البعض، وأفرد لكل واحد منهم عالمًا خاصًّا مختلفًا تمامًا عن الآخر، واختفى خلف الجميع. آمنت بعض شخصياته بالتَّنجيم والسحر وأخرى بقيت متمترسة بشراسة خلف ماديتها. ثار بعضها على الملكية وأبقى بعضها مواقفه ثابتة من الشعر الكلاسيكي والبرجوازية. لماذا هذا التعدد المثير؟ لماذا لم يصنع بيْسوّا ما يروج عادة عن الشعراء المميزين أنَّ لهم بصمة خاصة يمكن معرفتهم بمجرد الإنصات إليهم؟.

من لا يستطيع التحرر من بصمته الخاصة وصوته الخاص هو أسير صورته عن نفسه.

هجا شعراءه وبرر لهم، كان حين يتنقل متقمصًا إياهم وحين يكون أحدهم يحبُّه لدرجة الشَّفقة، وحين ينسلخ عنه يقاومه لدرجة التدمير بخلق نقيضه.

وبعد أن فعل كل ذلك كتب ليقول.

«**أحس أن لي قيمة لأننى ولدت**

فقط لأصغي إلى هبوب الريح».

من حظَّنا أن يتلقفه كاتب كبير بحجم تابوكي الإيطالي من جذور اللاتينية الحية، يحترف الإيطالية وشغوف بالبرتغالية، ليستطيع أن يفكك أسراره. كلما فكرت به أن رياض صالح الحسين هو أحد شخصيات بيْسوّا، وبمعرفة بيْسوا ربما نرى ظلًا آخر لرياض الذي مات في الثامنة والعشرين. كان ينقص بيْسوّا روح رياض الطيبة، وشجاعة رامبو في اقتراف الصمت، ولكنه يتقاطع مع كوابيس كافكا، وتشاؤم فلاديمير هولان.

برفقة رياض الصالح الحسين

الشمس النائمـة في السماء
والأغاني النائمة في المقبرة
بدأنا نعرف لماذا ننام و نأكل
ونسير في الشوارع بلا هدف
حيث في كل خطوة قمر مكسور
حيث في كل كلمة قبلة مذبوحة.

رياض الصالح الحسين

ماذا كان سيكتب هذا الفتى الوسيم لو بقي حتى اليوم. كم مجموعة كان سينجز رياض بعد كرَّاسة الحطَّابين الأشرار، وخراب الدورة الدموية، وبسيط كالماء ووعل في غابة.

لو قيِّض لي أن أتكهن، هل سيكتب سراديب غامضة للغيوم الشَّحيحة، أَمْ تفقد صباحي لنهدين متهمين بجناية الإغواء، أم جسد يشوى كالكستناء على سطح صوبيا قديمة.

بلاد السَّكاكين البادحة، عرائش لهب وقصائد رغوة. انسلاخ العطر عن الورود، خذلان الينبوع، نقاء الرماد، جثث طليقة تنحت الهواء بمخالب الأزهار، ألسنة مصفدة في غار مهجور، مذاق البلاد بطعم الوحي، أرخبيل

قبلات على بحر مليء بالجثث، أموات بساعة صفاء، ملونون بالحرب مرشوشون من ثقوب المملحة التي تسمى بلاد. فمك نقالة موتى، سرير النّوم للعروسين في مشرحة الأحلام، لأزهار الوطن ظلال دبابات، هذه العناوين أبتكرها من وحي صوره التي طالما أدهشتني.

كان رياض يُسيّل لعاب الكلمات ويكتب على الرِّيق طزاجة الرائحة المنبعثة من القهوة الممتزجة بحبوب الهال.

أربع مجموعات من الشعر النقي البريء الساذج الحار الواضح المعطوب، خطَّها رياض قبل أن يتمَّ الثلاثين. إنَّه سحر الشعر الذي يحملني اليوم لأدخل لشبونة متخليًا عنِّي، حاملًا رياض بدلًا مني، أحمل كرَّاسة الحطابين ولحاء شجر الغواية.

صحيح أن هناك تباينات كبيرة بين نصوص الديوان الأول ولكن صفة البراءة ستكون هي الدَّامغة لروح رياض.

في لشبونة أنظر إلى كثافة وجود اللون الأصفر، فعلًا إذا دققت جيدًا مستحيل أن تلتقط عيني أي مشهد أو لقطة واسعة إلا وبها مسٌّ من الأصفر.

إذًا هذا لون لشبونة مدينة اليرقان والأرق، مازال نبض الصّداع يتحرش بقعر جمجمتي. هل مـن أحد يقايضني؟ أستطيع استبداله ببعض الروماتيزم أو التلاسيميا أو حتى الإسقربوطيا فقط ليكف عنّي هذا الصداع. أفقد صوتي أصير أبكمًا كما رياض، لا أعرف كيف أقول أو أخرج صوتي من حلقي.

آب اللهاب يتفتح على الأرصفة، تمرُّ امرأة ترتدي شيئًا من الأصفر، أجاوبها بنظرة تقول بلسان رياض: «**عيناك مرآتان من الوجع والانتظار وخمسين قارة**».

طلسم المدينة بدأ يمنحني المفاتيح لأكرج بها، الانتظار الأصفر. ولقب لشبونة هو المدينة البيضاء لأنّها مليئة بالنور، ولكن في الحقيقة إذا انتبهت جيدًا ستجد أن الأصفر هو علامتها الفارقة.

اكتب الشعر فلديك ناس في كل مكان يقول بيْسوّا.

أقف لأختلس النّظر وأكتب بضع جمل لا تعني شيئًا لا أعرف كيف سأقول المدينة، ولكن على حواف الميدان هجعت نفسي وبدأت تنصت لكلّ شيء، لا تسمح إلا لمرور همسات الوجوه العابرة والنظرات المتشتتة وترنيم لغة غريبة. تطلب كأس البيرة الباردة وتنصت، تفتح القلب وتغمض العينين. حاول أن ترى المدن بقلبك لا بعدسة كاميرتك.

حدقتا الشاعر تنفرجان على السماء كلما ذهبت النجوم لتتنزه فوق سقوف البيوت، وتضيقان كلما مارس عاشق الحبَّ في سرير يخلو من الشعر.

أنصت للعابرين من حولي بدهشة من يقول: إنني أعرف أجمل رجل في مدينتكم، فابعثوا لي بأجمل امرأة عندكم كي أقدم لها وجه رياض الصالح الحسين وخمس حكايات مؤثرة، ونكتة خفيفة على القلب في ظهيرة صيفية في لشبونة، فلا أجد إلا العابرين.

فجأة استعاد السوريون رياضًا، سيرته أشعاره، نصوصه، كتبت عشرات الدراسات عنه، وكأن شعورًا ممتزجًا بالإثم والندم على تركه لسنوات يحرض الجميع، فأقحم بأعمال أدبية أو درامية. أنشأ له موقع إلكتروني يجمع كل أعماله، سهل الوصول إليه، وكسرت حالة الاحتكار التي كان يقوم بها البعض ممن يملكون وثائق الذكريات والصور والقصاصات معه. ومع الفيسبوك ظهرت صفحات له تقوله وتتهجاه وتستعمله أيضًا.

والأهم جيل جديد لم يبلغ بعد عمر وفاته بات يعرفه، ويكتشفه، أي: بات يتعرف على جزء من المسكوت عنه في سوريا. ومن بين كل تلك الدراسات ستكون دراسة «خلف علي الخلف» في مقدمة أعماله هي الأكثر صوابية ودقة عن حياته. ولأنها منجزة بإتقان ستوفر على الباحث عن الرياض الكثير مما يريده من المعرفة. ومع اندلاع الثورة السورية، كانت نصوص رياض المكتوبة قبل ثلاثة عقود تقول وقائع تحدث الآن. كانت متحققة لدرجة تثير الريبة بقدرتها على التطابق في الكثير من متونها وإسناداتها ومحاكاتها وتلميحاتها. كانت نصوصًا تستشعر المجزرة والموت والحرية، وكأنها كُتبت الآن. لم يكن لدى رياض ومعظم السوريين من أمثاله ترف التّفكر في أسئلة الحياة الأربعة الكبرى التي لا يُجاب بزعمي عنها إلا بالشّعر أو بالفلسفة.

سؤال الحياة لماذا خلقنا؟ سؤال الموت لماذا نموت، وأين سنذهب بعد الموت؟ وسؤال الزّمن كيف مرّ وما هي قيمته إن لم تكن هناك ذاكرة؟ وسؤال الحبِّ، الذي يكمن بجوهره الآخر كيف نحب ولماذا نحبُّ ولماذا أيضًا نعجز عن الحبِّ، وما الذي يسبب هذا الشيء الذي يسمى الحبُّ؟ ولكن في البلدان المحكومة بثلَّة من القتلة تلغى هذه الأسئلة وتستبدل بالتفاصيل الصغيرة، تصبح النجاة بقدرتك على خلق عالم آخر واجتراح معجزة الحياة.

متسلحًا بالشعر أقتفي أثر هذه الأسئلة علَّني يومًا أقارب وأقترب من الإجابات.

إنّها الأسئلة الأكثر جوهرية للمعنى والمبنى الذي وجدنا من أجله.

المأوى، بيت بيْسوّا الأخير

بصمت مفعم بالكراهية، أنصتُ مسبقًا، بنية قتلٍ دفينة إلى الصوت الذي سيهم بأن يقول لي شيئًا. يبتسم من داخل البيتً ويقدم لي تحية المساء بصوت عال.. أكرهه مثلما أكره الكون، عيناي مثقلتان بالنعاس.

بيْسوّا

بيت بيْسوّا أصبح متحفًا. واحد من البيوت الأخيرة التي سكنها بثلاثة طوابق. أتعرف على البيت ليس من الشَّاخصات الدالة عليه بل من النافذة العلوية حيث رجل من بعيد يرتدي قبعة سوداء ويضع نظارات طبية واقف لا يتحرك على النافذة يراقب الشارع. وحين أقترب أجد هذا الشخص مجرد تمثال مجسد لبيْسوّا يقف هناك طوال الوقت.

على الأرضية الداخلية للبيت مخططات للأبراج وخرائط فلكية لحركة الكواكب رسمها بنفسه، لم يكن يخفي ولعه بالتنجيم وعالم الأبراج.

إلى اليمين مكتبة ضخمة تضم مؤلفاته، والدراسات التي بلغت أكثر من ثلاثة آلاف كتابٍ حتى الآن حول مؤلفاته، ومازال الكثير لم يعرف بعد. صحيح أنها خمسة وعشرون ألف نص في صندوق، بعضها نصوص غير مكتملة وبعضها على ألسنة أقرانه الذين ابتكرهم، شعراء، نُقَّاد، كتَّاب مسرح، وأيضًا مثقفون يصنعون الكلمات المتقاطعة التي كان يعتاش منها ومن بعض مترجماته.

المكان مضاء بصورة باهرة وتماثيله والهدايا في كل مكان. تمثال صغير له في الصالة وثمة لعبة فيش شهيرة، بدل اللاعبين فيها مجسمات له ولبعض شعرائه. المكان حميمي وخفيف ومليء بالسحر واللاتوقع والغموض، إنَّه عالم فيرناندو بيْسوّا.

أصعد إلى الطابق الثاني، أقف أمام آلته الكاتبة. تأمُّلُ الأشياء الحميمة من هذا النوع يثير مشاعر ممتزجة بالخصوصية والحزن. معطفه الثقيل معلَّق على مشبك الغرفة، وسريره وأدواته التي كان يستعملها. الغرفة حافظت على نفسها كما لو أنها تنتمي لبدايات القرن العشرين، الأرضية تراب، الغاز الصغير أقرب لبابور الكاز، فرشاة ذقن وثلاث ماكينات حلاقة كلاسيكية وأمواس حلاقة علاها الصدأ، ونظارته وعصاه وفراشه الفقير الذي يتوسد خلفه مكتبة صغيرة. أجتاز الحاجز الفاصل، بلافتة ممنوع الدخول، لم أستطع المقاومة صراحةً، تلمستُ الفِراش والكتب ووقفت بجانب مجسم الشاعر الذي يطل على لشبونة وراقبتها من زاويته، لم تتغير كثيرًا على ما أعتقد، فقط المباني المقابلة سدَّت رؤية قاع المدينة من أعلى التَّلة. حملت عكازه، تلمسته وتشممت رائحة الرطوبة والغياب التي تنضح من المكان.

لا أعرف ما الذي أريده منه، ولا عن ماذا أبحث أو أكتب فتذكرت نصيحته في كتاب اللاطمأنينة.

«**عليك بتأجيل كل شيء، لا ينبغي أبدًا أن تعمل اليوم ما يمكن أن تؤجل عمله غدًا.**

ليس ضروريًا عمل شيء، غدًا

لا تفكر أبدًا فيما ستفعله لا تفعله

عش حياتك. لا تدعها تعيشك».

وهنا شعرت أنّني دخلت عوالم بيْسوّا، فتركت حيِّزه الذي اقتحمته بكل صلافة وأنانية وشعرت بالخجل من نفسي، أدخل عالمًا ليس لي وأحشر نفسي به، وألتقط الصور تزلفًا له. ترى هل حقًا هذا ما أريد فعله هنا؟.

بالحقيقة لا أريد أن أقوم بأي شيء، فقط أسلم نفسي للتَّداعي الحرّ بحضرة مكان لا يعنيني، وربما لا يعني أحدًا، ويعني كل الناس.

وهنا طفر السؤال الموجع الذي طرحته على نفسي، ماذا أريد أنا من هذه الرحلة/ التجربة.

لماذا أنشر بعضًا منها وأتجنب بحذر الكثير من التفاصيل. هل أستطيع فعلًا قول ما حدث معي في لشبونة؟.

بالحقيقة لا، لا أستطيع ؟ مهما أوتيت من الجرأة لا أستطيع أن أقحم حياتي الخاصة في هذا الفضاء العام، طيب لماذا أسمح لنفسي باختراق خصوصية الآخرين والإيحاء بقدرات لا أملكها، مشاعر لا أكنُّها، أفكار أستعيرها هواجس أقسر نفسي على هجسها..

غطتني سحابة من الإحباط حين بدأت أطرح على نفسي مثل هذه الأسئلة الثقيلة. ما الذي أريد قوله حقًا في هذه الرّحلة؟.

الاستعراض طبعًا أريد أن أستعرض رحلتي على الآخرين، وأثبت أنني مختلف وخاص ولا أشبههم. ولكن هذا مشروع ومسموح فلا تقسُ على نفسك.

أريد أن أكتب كتابًا مؤثرًا علنيًا، أحظى بالمديح والتَّقدير المادي والمعنوي الذي يرضي أناي؟.

ـ طبيعي ومن لا يحلم بذلك فهذا حق مشروع لكل كاتب ولكن..

أريد أن أشترك وأشارك بشيء إنساني حميمي وخاص وذكي وأستفيد منه أكثر مما أفيد به.

ـ لا تقسُ على نفسك لهذه الدرجة فأنت تزدري نفسك.

ازدراء الذات أعلى درجات قبولها. أقول لمحاوري الغامض:

ـ صحيح إذا رافقه فهم واع لذلك، بيْسوّا يقول لك: «**في الصواب وفي الخطأ، في الرخاء وفي الشدة، اعرف كينونتك الخاصة. فقط بإمكانك أن تفعل ذلك حالمًا، لأن حياتك الواقعية، حياتك الإنسانية هي تلك التي ليست حياتك وإنما حياة الآخرين. هكذا تستبدل بالحلم الحياة وستحرص فحسب على أن تحلم بإتقان. في كل أفعال حياتك ـ الواقعية، منذ الولادة حتى الموت، أنت لم تفعل شيئًا: كنت مفعولًا به؛ أنت لم تعش: كنت معيوشًا فحسب.**

تتحول بالنسبة إلى الآخرين «أبا هول» سخيفًا. أغلق على نفسك، لكن بدون صفق الباب، في برج من عاج هو أنت ذاتك.

وإذا قال لك أحدهم: إن هذا الوضع مصطنع ولا معقول، لا تصدقه. لكن كذلك لا تصدق ما أقوله لك، لأنه لا يجب تصديق أيَّ شيء.

ازدر كل شيء، لكن على نحو لا يسبب لك معه الازدراء أيَّ مضايقات. لا تعتبر نفسك أعلى من ازدرائك. فن الازدراء يمكن في هذا بالذات».

آه.. نعم، من أجل مثل هذه المعرفة أقطع كل هذه المسافات لأعرفها أو اكتشفها بالأحرى لأؤكدها أو أنفيها، فهي تختمر بداخلي ولكنني لا أعرف قولها كما يجب. فكل هذه الضَّوضاء في هذه الرحلة ربما كانت لأني أزدري ما أقوم به أو ما قمت به أو ما تعلمته أو ما أنا عليه.

لكن لماذا ثمة مسٌّ من الألم دائمًا في كل شيء، من الأجلِّ والأجمل إلى الأكمل والأشهى؟! لماذا تمتزج اللحظات العالية بالمشاعر المريعة لديَّ؟!.

لماذا أحمل همَّ شاعر مات منذ زمن، أتماثله وأمشي به، وأتحدث عنه وأعرِّف عليه. لماذا لا أهتم بنفسي لوحدي وأتخلص من عبء فرضته علي ذاتي. إنها الروح الإنسانية التي تحملها يا هذا، أجابني الصوت. فالذي جاء بك إلى هنا هو روحك أنت أولًا، وكل ما تفعله هو محاولة للتبرير. ستنجز هذا الكتاب وتعود، المهم كيف ستنجزه وكيف ستستخدم كل هذه المشاعر والأفكار والمشاهدات. هل ستحتفظ بها أم ستزرعها في تراب الورَّاق علها تزهر للآخرين، الكتابة هي أكثر فعل أناني في الكون وبنفس القدر هي بلا معنى إن لم تحقق المشاركة. تناقضات وصعوبات وأسئلة الكتابة هي أسئلة الحياة بحالتها الخام.

وفي هذه اللحظة وأنا عالق بين مقصِّ الأسئلة الجارحة وروائح الزمن، وما تبقى من أشياء بيْسوّا التي قاومت التَّلف، سمعت من الطابق الأرضي صوت بيانو، صافٍ، لذيذ، به نداء يدعوني للنظر وليس للسمع. ولأعرف من يصدر هذه الكمية من الأوكسجين في هذا البيت العابق باختناقات الذاكرة تقدمت إلى الحافة. كانت صبية تجلس باستقامة وتداعب المفاتيح فتصيح. بهذا الفصيح من غير المنتظر، الذي غيَّر المزاج فجأة وأتبعها بوخزات وافرة من الألم، يا ترى من أين يأتي الألم؟.

في كتاب اللاطمأنينة يجيب بيْسوّا نفسه:

«الروح الإنسانية هي ضحية حتمية للألم، تقاسي ألم مفاجأة الألم، حتى مع ما تتوقعه من آلام. الرجل الذى يتحدث طوال حياته عن التقلبات

الأنثوية كأمور طبيعية وأصلية، سوف يجرب كل ألم المفاجأة عندما يجد نفسه مخوَّنًا فى الحب... والآخر الذى كل الأشياء بالنسبة إليه ألم وفراغ، سيشعر كما لو أن صاعقة مفاجئة أصابته عندما يكتشف أن الآخرين يعتبرون ما يكتبه سخافة. أو أن مجهوده فى التعليم عقيم أو أن تأثير عاطفته زائف.

لا ينبغى الاعتقاد بأن الرجال الذين يتعرضون لهذه البلايا، ولما يماثلها، قد كانوا قليلي الصراحة فيما قالوه، أو كتبوا عنه، وأن تلك المصائب كانت متوقعة ويقينية. لا وجود لأي علاقة بين صراحة التأكيد الذكي المعقلن وفطرية الانفعال التلقائي. ولعل الروح إنما تتلقى مفاجآت من هذا النوع، فقط لأن الألم لا ينقصها، ولأن الخزي لا يترك لها مجالًا للمصادفة، ولأن الغم لا ينقصها كجزء معادل من الحياة. كلنا متساوون في مقدرتنا على الخطيئة وعلى المعاناة. وحده عديم الإحساس لا يصيبه شيء؛ والناس الأكثر سموًا، والأكثر نبالة، الأكثر فراسة، هم الذين يقعون فريسة لما توقعوه واحتقروه. وهذا ما يدعى الحياة».

كانت خلاصة تستحق ما رافقها، شيء ما يُشِعُّ في داخلي يمنحني الطَّاقة الواجبة للاستمرار في هذا التِّيه الذي أودعته نفسي فأردد كلماته الحاسمة: «لو أرادوا كتابة سيرتي بعد موتى فليس ثمة ما هو أسهل. يوجد يومان ـ يوم ميلادي ويوم وفاتي ـ كل ما بينهما من أيام لا يخص أحدًا سواي».

بيْسوّا بين يدي أنطونيو تابوكي

لا أريد الحقيقة
الحياة فقط أريد
الآلهة يهبون الحياة،
لا يهبون الحقائق
ولا يعرفون ما هي الحقيقة.

بيْسوّا

بعد تمزيق العديد من الصفحات وجدت أخيرًا ما يجب أن يكتب هنا. أي: لا بدّ من قراءة أنطونيو تابوكي وروايته الكاشفة (هذيان أيام فرناندو بيْسوّا ـ الثلاثة أيام الأخيرة).

28 ـ 29 ـ 30 تشرين الثاني/ نوفمبر 1888 يوم موت الشاعر.

صدرت رواية تابوكي عن الإيطالية عام 1994، وهي ترصد الأيام الثلاثة لبيْسوّا في المشفى بينما يقوم الشعراء الذين خلقهم بالتوافد إلى زيارته، وتمضية بعض الوقت معه، والإدلاء بالاعتراف وواجب العزاء والمعاتبة على تلك الأيام التي قضوها معًا مترافقين.

يبدع تابوكي في تلخيص حياة بيْسوّا الشّخصية والإبداعية ويظهر مهارة فائقة بفهمه العميق وقراءته الكبيرة لكل شعراء بيْسوّا.

لا ينبغي على أي أحد أن يترك وراءه عشرين كتابًا، وإذا كان قادرًا على الكتابة مثل عشرين من الأشخاص المختلفين، فهم يكونون عشرين من المختلفين. يقول بيْسوّا.

على كلّ يمكن قراءة رواية تابوكي بالعربية بمقدمة طويلة ملهمة شارحة وشديدة الأهمية للمترجم اسكندر حبش، منشورات دار طوى. سيسعفك حقًا بتحويلك من سائح ساذج إلى فائح بالأسئلة وفادح بالاكتشاف. يعرِّفك على جذوة التعدد، فالذات الواحدة مصابة بعسر الحياة.

ثلاثة أيام في لشبونة برفقة بيْسوّا وشعرائه الذين خلقهم قبل الوصول إلى موته، دفعتني لتأجيل الذهاب إلى قبره حتى آخر يوم لي في لشبونة.

تمدني هذه الرواية بالخيوط الأولى للمسير، فأتجه إلى كاتدرائية أستيريا بقبتها الباروكية الكبيرة، بدعة معمارية جاثمة بلا مبالاة. حديقتها المفتوحة للعامة كانت تجمع بيْسوّا مع أوفيليا كويروز، حبَّه الأوحد، يتخاصمان، ويتبادلان النذور بأبدية العشق، وبعض القبلات المسروقة المباركة.

حياتي أقوى مني، سامحيني يا أوفيليا، كان علي أن أكتب، لم يكن علي سوى أن أكتب، لم أكن أستطيع القيام بأي شيء آخر، لقد انتهى كل شيء الآن.

ستكشف رسائل بيْسوّا إلى حبيبته الجانب الأبسط والحقيقي منه، وستقوم ابنة أخت حبيبته بنشرها بعد زمن طويل، محققة شهرة ودخلًا كبيرًا من المال.

سنجد فيها بيْسوّا العليل، المقهور بالتفاصيل، الذي يتمنى أن يربح جائزة الألف باوند كي تتحسن حياته. سنجد فيها بيْسوّا العاشق الطيب

الصادق المبتلى بمرض في الفم، ما يُضطرّه أن لا يتوقف عن البصاق كل دقيقتين. سنجد واقعية هذه الشخصية المثيرة الغامضة عارية مجروحة وغارقة في شؤون الحياة، من إيجار البيت والخوف من خسارة العمل والاهتمام بالأم المتطلبة. الخائف على صورته، عند حبيبته، من العزَّال. المتصدي للنميمة الاجتماعية..

سنجـد شخصية هشة مـن لحم ودم لا تشبه أبـدًا الصورة الخـيـاليـة المدهشة للكاتب العبقري.

ـ وداعًا أيها الحب الصغير، حاولي ما استطعت أن تحبيني حقًا، لمشاركتي آلامي، لتتمني لي صحة جيدة؛ حاولي أن تتظاهري بذلك بشكلٍ ما!.

ـ الرسائل علامات انفصال، الرسائل نكتبها لأولئك الناس الذين لم تعد لدنيا رغبة في الحديث إليهم.

ـ وداعًا، سأضع رأسي في قاع دلو. هكذا يفعل الكبار على الأقل عندما يكون لهم أولًا عقل، ثانيًا رأس، ثالثًا دلو حيث يضعون رؤوسهم!.

ـ أترين فمي أصبحَ وقحًا لأن وقتًا طويلًا مرَّ على قُبلاتك.

الرسائل تكشف ألمه الشخصي، تعري وجعه وضعفه وفقره. انتابني شيء من القهر الداخلي عليه، مثلما حدث حين نُشرَت بعض رسائل رياض إلى أصدقائه.

على كل، أتمنى أن تُجمع رسائله في كتاب وكل من يملك رسالة منه أن يعلنها لتعاد كتابة سيرته الشخصية والأدبية معًا. لأن التشويه سيبقى مرتكبًا مادام هذا التراث فالتًا من التوثيق والحماية. وليس أدل على ذلك من مسلسل «زهرة النرجس» إخراج رامي حنا، الذي تظهر فيه شخصية

الشاعر بصورة سودواية معتمة (باستعارة لقصائد رياض بحرفيتها)، بينما صور رياض الصالح الحسين الشخصية جميعها تُظهره مليئًا بالفرح لا تفارقه الابتسامة، راقصًا مجلجلًا مكتظًا بالحياة.

ومع احترامنا لحفظ حق رياض الأدبي في العمل الدرامي، لكن القصائد ليست إلا جزءًا من شخصية الشاعر، كما عند بيْسوّا، وليست الشخصية متكاملة. ومن لم يقرأ رياض من قبل وتعرف على قصائده في المسلسل ستنطبع في ذهنه الشخصية الدرامية مرتبطة بالقصيدة. وأرى أنه اجتزاء وإعادة تركيب تشوه سيرة الشاعر وتنتهك حرمة غيابه وتستغل القصيدة.

سنتابع المسير بخارطة رواية تابوكي عن بيْسوّا، أمام البرلمان، وتمشي باتجاه حي الكالسداد دو كومبرو.

حيث قطن سابقًا، في غرفة ضمن بيت سيدة مجنونة في الستين من عمرها تعمل بتحضير الأرواح، كانت تدعى ماريا داس، كان يشاركها جلساتها الروحية، حين تتصل بزوجها الجنرال الميت، وتدخل معه في أحاديث لا تنتهي، عن الحروب، وأسعار الفلفل، وخلال تلك الفترة ابتكر شخصية (برناردو سواريس) وبدأ يخط كتابه اللاطمأنينة.

وأيضًا اخترع شاعرًا مبتدئًا يعمل كشرطي، يدعى (كويلهو باشيكو)، كان يتبادل مع أقرانه الشعراء إشارات سرية، بالأصابع ورفيف الجفون.

في مشفى المدينة، رقد بيْسوّا أيامه الثلاثة الأخيرة، في الغرفة رقم 4. سيكون من اللائق أن ألقي نظره عليها، قبل البحث عن الشعراء الذين تناسلوا منه، وزاد عددهم عن السبعين شاعرًا.

في غرفة الاحتضار، سيجيء أنداده مودعين. أول الزائرين كان (ألفارو دو كامبوس).

سيتعاتبان، قليلًا، ويقول الفارو دي كامبوس: ألاحظ أنّك لم تعد تناديني بالمهندس، ولم تعد تكلمني بصيغة الاحترام، وتكلمني بدون تكلف!.

يجيب بيْسوّا: لقد دخلت حياتي وأصبحت بديلًا عني، ولأنّك أنت السبب في إنهاء علاقتي بأوفيليا. وأيضًا أنت من شككت بوجودي وادَّعيت بأنني لست سوى نسج من خيال.

يرد دي كامبوس: بخصوص الشّك بوجودك أعتذر عن ذلك، ولكن هل فعلًا ظننت أنك كنت موجودًا أكثر مني؟ أما حبيبتك فهي لم تكن تلائمك. كان زواجكما سيفشل، الآن إذا رجعت إلى رسائل الحب التي كتبتها لها ستجد كم هي سخيفة. الرسائل والحالة التي كنت تكذب بها، أتمنى أن تشكرني على ذلك، لقد أنقذتك من السخف.

أتدري أن رسائلك اليومية الساذجة التي بعثتها إليها ستقوم ابنة أخت حبيبتك بنشرها بعد سنوات، وستبدو فيها كم كنت أخرقًا وساذجًا وطيبًا. بالعامية «تلوِّي القلب» يا عزيزي. سبعة عشر رسالة إلى حبيبتك، تتكلم فيها عن وجع حلقك وكيف تضطر على البصق كل دقيقتين، هل تتوقع من انتهازية مثل حبيبتك أن تتفهم صدقك، وأنت تبوح لها بألمك وتناديها برضيعتي، أو فرنادويك. أو حين تصرِّح لها برغبتك بأن تربح جائزة الألف باوند التي تحتاجها بشدَّة، أو كيف يطردك ربُّ عملك لأنّك غير مؤهل للعمل. وكيف تقضي جلَّ وقتك بالانتقال من بيت إلى بيت، وتساعد أمك الطَّيبة، وتكشف لها أمراضك وأرقك وأوجاعك وحسراتك، ياه يا عزيزي بيْسوّا كم أنقذتك من هذه البلوى كم أنقذتك من السخف.

يطرق بيْسوّا ويهمس بحكمة المحتضر، قبل موته بيومين، سيطرح

على نفسه ذلك السؤال العجيب، هل فعلًا من السخف أن يكون للشاعر عائلة وأولاد؟ على الأقل سيكون موتًا لطيفًا، محاطًا بالأولاد والعائلة، أفضل من مخالطة هؤلاء الأشباح.

هذا ما تخيلته وفكرت به وأنا أستحضر رواية تابوكي عن بيسوّا وأمر بجوار المشفى الذي مات فيه.

تاريخيًا، الزواج مضادٌّ للشاعر، ولكنه سيكون منقذًا للكثير من الرِّوائيين.

ربما من بين كل الشعراء، لمع نجم الشاعر الأمريكي (دونالد هول).

فقد تزوج شاعرة أيضًا «جين كنيون» وشهد احتضارها وموتها، فأصدر ديوانين جعلاه يلمع كألماسة نقية في سوق الشعر الكاسد «السرير المطلي» و ديوان بعنوان «من دون».

كان غيابها الفاجع يجتاحه، فتألقت القصيدة، هكذا سيبدو الغياب محرض الشاعر. أن يكون المرء مهجورًا أو متروكًا، يتلمس أثر الفقد بحواس الشعر، هي المعادلة المضمونة للبقاء على قيد الشعر.

ألفارو دي كامبوس، أحد شخصيات بيْسوّا كان عدميًا، لكنه أيضًا أحبَّ، سيقول له: لقد أحببت الحياة أيضًا، وإذا كنت في أناشيدي المستقبلية والغامضة قد كتبت بسخرية، وإن كنت في قصائدي العدمية، قد دمرت كل شيء حتى نفسي، لتعلم أنني أحببت الحياة بألم واعٍ.

يرد الشاعر المحتضر لندِّه المعترف: أغفر لك يا كامبوس إذا كنت قد أحببت لمرة واحدة، فهذا لأنك بشري، وإنسانيتك قد غفرت لك.

فيتابع كامبوس: أريد أن أعترف لك يا بيْسوّا، أني أحنّ وأندم، إلى الحقبة التي كنت فيها شاعرًا منحطًا، أتذكر الآن ضوء القمر والمراكب،

والجمال، وكم كنت أحمقًا، لأني كنت أسخر من الحياة، لقد أضعتها ولم أعرف كيف أتمتع بها، وهربت حياتي مني.

لم أستطع فك رموز الواقع، أصبت بالإحباط فهربت للعدمية، مثلما هرب غيري إلى الدين، ويهرب العالم إلى المال، لنفس النتيجة ولكن بتسميات مختلفة.

الآن أنا سأموت معك، ولكن كان علي أن أقول لك ذلك، لأننا لن نلتقي ثانية، وأعرف أن المزيد من الأشباه والشعراء الذين خلقتهم ينتظرون دورهم ليلقوا عليك نظرة الوداع.

يقول بيْسوّا: أسمعني يا كامبوس قصيدة تخطر على بالك في هذه اللحظات قبل أن تغادر.

كامبوس: حسنًا إن كان من قصيدة فلتكن «طريق سينترا على ضوء القمر». وها أنا أتلو عليك مقطعًا منها.

أأخلف أحلامًا من ورائي، أم ترى هي السيارة التي تخلف الأحلام؟.

أأنا قائد السيارة، أم أنا السيارة المعارة التي أقود؟

على طريق سينترا وعلى ضوء القمر

بينما أقود الشيفروليه المعارة

وأنا مفعم بالحزن أمام الليل والحقول،

أضيع في طريق المستقبل،

وأغوص في المسافة التي أبلغها،

وبرغبة فظيعة، مباغتة، عنيفة، لا معقولة،

أزيد سرعتي...

كان بيْسوّا يردد ما تبقى من القصيدة حين اكتشف أنَّ ضيفه قد غادر

وهو يبكي، وعلى الباب سيكون معلمه (ألبرتو كاييرو) ما زال قلِقًا من كل شيء وخاصة رؤية الأشياء على أنها أشياء، هادئًا يرتل أناشيده بمعزل عن أيّ أديولوجيا أو ثقافة تعكِّر صفو الشعر:

الجوهريّ أن نحسن الرؤية

أن نحسن الرؤية دون تفكير

أن نحْسن الرؤية عندما نرى

ولا أن نرى عندما نفكِّر

وعلى عكس ما توقع، كان ألبرتو كاييرو يريد أن يعترف لتلميذه لا أن يسحب منه الاعتراف، فباشره فورًا:

أنا هو مسبب الأرق لك، في كل تلك الليالي التي لم تستطع أن تنام، أنا كنت من أزورك في الليل، أجعلك متوترًا، أحيل ليلك إلى جحيم من الخيالات، أملأ مكان رقادك بالذكريات، والكلمات، وجعلتك تكتب بلا أدنى شفقة لنفسك.

أطرق بيْسوّا بهدوء، ثم قال: كنت أشك أنّه أنت، على الرغم من كل الألم المدمر للأرق، لكنك جعلت من تللك الليالي خصيبة.

لولاك يا ألبرتو لم أنتج، ولم أكتشف. كنت أحتاجك كي تكون لي بمثابة المعلم والأب.

لا يمكن أن تنجز الحياة بدون هذا المثل، فحين تصادر الحياة الواقعية منك الأب أو المعلم، عليك بابتكاره، كنت أحتاج يا ألبرتو، إلى مخثر، ودليل. لولاك لتطايرت حياتي إلى شظايا. لم يطل المعلم المكوث، شعر بالإطراء الشديد ودَّع تلميذه بفرح، وغادر، لأن بالباب كان ينتظر منذ وقت طويل، ندَّه الذي عاد من البرازيل على ما يبدو.

(ريكاردور يس) طبيب وشاعر كلاسيكي همس بيْسوّا: ريس هو «هوراس إغريقي يكتب بالبرتغالية». أغلب قصائده تتحدث عن الحاجة إلى تقبُّل القدر. ريس كان ملكي الهوى، ولذا لاذ بالفرار إلى البرازيل حينما سقطت الملكية. وهو الشخصية التي عنون لها سارماغو روايته الخالدة «سنة موت ريكاردو يس». كان هذا أخطر أنداد بيْسوّا لأنه حاول أن يقنع العالم أن بيْسوّا نفسه لم يكن موجودا وأنه هو من ابتكره.

حين دخل قابله بيْسوّا بابتسامة لطيفة إذًا ها أنت تعترف بأني موجود؟.

فأجاب ريكاردو بقصيدة.

دع الريح تمر لا تسألها شيئًا

ليس لها من معنى

غير أنها الريح تمر

ارغب فى القليل: تملك الكل

ارغب فى لا شيء: تَكُن حرًا

نفس الحب الذى يكنونه

لنا، يضطهدنا

ما نأخذه من هذه الحياة

الباطلة، مجدًا أم شهرة، حبًّا أم علمًا،

ليس بأفضل من ذكرى

مباراة كسبناها

بعده يأتي (برناندو سواريس) يحلم بالأرواح المتعددة، وأن الآلهة المتعددة ستعود لحكم السماء. فحياة واحدة لا تكفي وشخصية واحدة

لا تكفي. وبسرعة طلب منه بيْسوّا أن يلقي عليه قصيدة دكان التبغ.

حسنًا أيها العزيز:

عندما أردت نزع القناع

التصق بوجهي

عندما نظرت في المرآة كنت قد شخت

ثملًا كنت، لم أعد أعرف وضع القناع الذي لم أنزعه

طوحت به

وفي خزانة الثياب نمت

مثل كلب معتنى به

لكونه غير مؤذٍ

بعد هؤلاء، توافد العشرات من الشعراء الأنداد الذين اخترعهم قبل أن تحين ساعته ويسلم الروح إلى النهاية. يمكن استبيان بعضٍ من أشهرهم فهناك أنطونيو مورا مؤلف العديد من النّصوص الفلسفية المكرَّسة لموضوع الوثنية. رافائيل بالدايا المنجِّم، شأن بيْسوّا نفسه، والمأخوذ بالغيبيات. مؤلف «رسالة في النكران» حيث تكون فرضيته الأساسية أن الوجود وهمٌ، والقدر هو أكبر كذبة.

هناك أيضًا البارون دي تايفه الذي عرف بمؤلفه الصغير «تعليم الرواقي» الذي عبر فيه، شأن بيْسوّا أيضًا، عن إحباطاته بسبب عجزه عن إنهاء أي عمل، وفي النتيجة يفكر بالانتحار. وبعده تأتي ماريا خوزيه العاشقة الحدباء كاتبة رسالة إلى عامل، تشاهده كل يوم من نافذتها، إلا أنّ الرسالة لم ترسل، وهكذا واحدًا تلو آخر مروا للوداع، وذابوا وبقي لوحده ليتأمل اللحظات الأخيرة وهو يخرج آخر الأنفاس.

فجيعة الأنا
حين تحدثت مع فرناندو بيْسوّا
عن رياض الحسين ذات صيف

كلّ اقتراب هو بمثابة حرب.

بيْسوّا

من المفيد معرفة أن أحد معاني كلمة بيْسوّا بالبرتغالية هو: «لا أحد» لتدرك أن المكان قد فرغ، كنت أقف على بابه، أراقب وجهه المطمئن، وشاربه الدقيق، قبعته السوداء، ومعطفه السميك، علبة لفافات تبغه، وعصاه الطويلة.

فأسمع صوتًا يسألني من أنت يا هذا؟ أتلفت فأجد عيني بيْسوّا تحدّق بي.

اسمي فادي عزام يا سيدي، جئت إليكم لأعرِّفكم على شاعر اسمه رياض الصالح الحسين، وأود أن أسمعك بعضًا من قصائده.

يخرج الصوت سؤالي: من أنت ؟ من أنت؟.

كما أقول لك أحاول أن أجمع بعضًا من أشقاء الحبر، شعراء وكتَّاب من كل مكان في هذا العالم، فهذه العائلة هي العائلة الوحيدة التي أشعر أني أنتمي لها.

يعاود السؤال ملحًّا صارمًا .. من أنت؟.

أنا... يا إلهي..أنا.. أنا ؟؟؟.

من أنا؟.

أنا الرقم في حواسيب البنوك وأجهزة المخابرات، أنا الزبون لدى تجار الحياة، أنا اللاشيء الذي يشغل حيزه على الكرسي، أنا الغريب أينما حلَّ.

أنا العطش الذي يفور بالينابيع، المبهم الذي يعرفه الجميع. المارثوني الذي ما زال يركض خوفًا من الافتراس، النَّاجي من مجزرة الوطن، والشاهد الملك على جريمة اغتيال حياتي. الصدى لموتى يجوبون الفراغ بقلوب تنزف بالحنين، رفيق الأشباح الهامسة وهي تخرمش أظافر النور على جدار المقابر التي تسمى بيوتًا.

أنا اللاأحد لا أثر لي إلا على الرمل، خطوتي كلما دعست انمحت، أنا المعطر بكل أنواع الجرائم، ولم أقتل أحدًا حتى الآن، جسدي تفترسه قطعان ذكريات الآخرين.

أنا الرجل بلحية لم تحلق بشفرة منذ عشرين عامًا خوفًا من أن أفقد التوازن وأقع للخلف.

أنا المنهوي من شاهق وكلما وصلت هويت.

أنا المجعلك مثل أوكورديون قديم يكفي أن تلمسني يد خفيفة لأعزف.

أنا الظهر الذي يعشق الطعن بالسكاكين الشقيقة.

أنا كل الهجرات السامية إلى رافدي جسد الحبيبة.

أنا الرَّحَّال إلى أغوار النسوغ التي تمدني بالقدرة على الافتراس.

أنا المدان قبل أن أفعل شيئًا، والبريء الذي سبب الأذى للعشرات من دون أن يرفَّ له قلب.

أنا المشكك بالحواس الواثق من الحلم المؤمن بالغيب، المكلف بأمر وحي روحي بتوزيع النبوءة على جسدي.

أنا مستكشف التضاريس الحميمية في بحيرة السرة ومثلث الموت تحت إبطي الحبيبة.

أنا حفار القبور الذي أقلق راحة الشعراء ونكش جثثهم، وأستغل موتهم لأفهم بعضًا من معاني حياتي.

أنا القرميدة المشوية على السطح أعالي المنازل، أرقب المدينة والسياح وأترقب التقاط إشارة غامضة من الغيب لأكتشف أن الحياة صالحة في مكان آخر ولكن نحن غير الصالحين.

أنا الصديق الذي يرقب براءة أصدقائه كيف تذبح كل يوم في أروقة الوحدة والخوف والهروب.

أنا المدان بجريرة الصدق، أنا المتهم من الأقربين بالكذب والكسل، أنا المتوهم الشديد الواقعية. أغني ليلة عيد كطفل لم يبلغ الرابعة كلما اشتهى جسد امرأة.

أنا السوري الهارب من بلدي إلى بلاد هاربة مني. أنا اللاجئ الذي لا يعرف ماذا اقترف ليستحق كل هذه الأوراق كي يمنحوه حق اللجوء!.

أنا القارئ النَّهم أجهل أبجديات الإتيكيت. أنا الذي سيدخل النار لأنه رمى بقطة من الطابق الرابع، وسرق من جيب أبيه عشر ليرات، وخان أعزَّ أصدقائه، واشتهى زوجات كثيرات، تحدث كثيرًا بعكس ما تأمره رغباته.

أنا العاشق الذي لا يعرف كيف يحب، واللئيم الذي لا يعرف كيف يكره، لكني بصقت في كأس الشاي لمن أزعجني، وقرأت كتاب السحر الأسود بجدِّية كاملة، لأنتقم ممن سرقني.

أنا العربي المصاب بأعذب الشعر، أعجن لغة العرب بماء الذهب وأعجز عن إعراب:

«أكلوني البراغيث».

مازلت كما خلقني الله عاريًا، صارخًا أحتاج الرِّعاية والثدي وتنظيم الأوقات والاغتسال والإسهاب في اللعنة.

أنا عاشق لهذه الحياة، مبتكر أشهى شتائمها الطازجة، منصت لمكامن أوجاعها، أصيخ السمع لوقع ندف الثلج على الأرض، ولانسراب الشعاع على مهل فوق بركة فتنته امرأة طافت بالفتنة والتجربة، ومازالت تحمل من الماغما ما يكفي لتدمير أربعين بومبي.

أنا الفضيحة بثياب فاخرة، لا أتقن الاعتناء بثيابي فدائمًا هنالك طرشة حبر لا أعرف كيف تظهر على جيوبي.

أنا المعجزة التي لم يتم الانتباه إليها. المعجزات دائمًا موجودة، مكتشفو المعجزات رعاة الخيال، حادوا الذكاء، تم حبسهم في قصور السَّراب، وأثق أن ذكيًا ما سيكتشفني يومًا.

أنا الذي يحبُّ النساء الأقل جمالًا لأنهن الأكثر كمالًا في الفراش.

أحب البساطة بكل شيء ما عدا الجسد والنبيذ والكلمات.

أحبُّ البلد الذي أنهكني وسرق شبابي وأسلمني إلى مدن العالم كي أبحث عنه.

أحبُّ الحقيقة وأكذب كما أتنفس.

أنا الذي يكتب الآن بجوار مشفى شهد موت بيْسوّا في لشبونة، بدل أن يذهب لرؤية الآثار التي لا يفهم منها شيئًا.

رفعت رأسي عن الدفتر أوقفت التَّدفق... يا إلهي إياك أن تسأل أحدًا ما من أنت؟ ربما يقضي عمره كله وهو يكتب الكارثة التي تبدأ بـ (أنا).

وهنا فهمت لماذا كتب بيْسوّا باسم 72 كاتبًا مختلفًا ولم يكفه.

ببساطة لأن أحدًا ما سأله يومًا من أنت؟ وهذا سؤال ساذج مطروح دائمًا، ولكن المغامرة الفذَّة فعلًا والكارثية والمدهشة أن يكتشف هذا السر ويشاركه للأحياء.

إنه سر خاص بالأموات لا غير، إنه سر يهتك حياة من يحاول البوح عن إجابة عنه.

لكنه ممنوح للجميع بكل رضى في تلك اللحظة التي يتخلص بها من كثافة الجسد وعوامل الفيزياء والكيمياء، ويقف ليودع النفس الأخير ويذهب إلى هناك ليتعرف على نفسه.

آه.. ماذا بعد الحياة؟.

للأسف لم يأتِ أحد من هناك ليخبرنا، ربما لأن المكان هناك رائع لدرجة لا تصدق فينسانا الأموات. أو لأنه خازوق لدرجة تجعل من الأموات لؤماء ويريدون من الجميع أن ينالوا خيبة هذه التجربة حيث لا شيء ينتظر الجميع. والصَّالحون منهم يركضون بيننا محذرين شاتمين صائحين بنا، انتبهوا، عيشوا، لا تفرطوا بالحياة، فنطردهم بالبسملات ورسم إشارات الصليب العظيم ونعمي أبصارنا عنهم ونحولهم إلى

أشباح. ثم نتفرغ لتضيع حياتنا بجمع المال وجمع التحف وجمع العلاقات والأصدقاء، ونتوج أنفسنا ملوكًا على مملكة النفاق والوحدة.

أجابني بيْسوّا هكذا إذن، وأردف أمامك طريق طويل للنهاية.

قلت له: ما أوضح الطريق وما أكثر المفارق.

همس لي: قلتَ لي ما اسم شاعرك الذي جئت به إليَّ.

ـ إنه رياض صالح الحسين.

ـ طيب أخبرني كيف كتب عن الموت.

ـ في بداية ديوانه الأول، يفتتح قصيدة للشاعرة المنتحرة سيلافا بلاث....

الموت!.

فن مثل أي شيء آخر وأنا أتقنه تمامًا.

ـ لا ترتكب الأخطاء ذاتها، الموت فعل شديد الوضوح أخبرني كيف كتبه هو.

ـ معك حق عزيزي بيْسوّا.

استمع إلى هذه:

كم هي لذيذة

الموتى الذين ماتوا

في الحروب والأوبئة

في السجون والطرقات

الموتى الذين ماتوا

بالخنجر والرصاص والديناميت

بالفأس وحبل المشنقة

الموتى الجميلون

ذوو الأسنان البالية

والوجوه الناتئة

تذكروا وهم في قبورهم

ضوءَ القمر وخضرة المراعي

تذكروا أنهم لم يعيشوا كما ينبغي

لم ينتبهوا إلى الأصوات والألوان

تذكروا:

كم قبلة أضاعوا

كم ضوءًا أغمضوا عيونهم كيلا يروه

كم زهرة لم يزرعوا

كم كلمة طيبة لم يقولوها

الموتى عرفوا

ربما للمرة الأخيرة

كم هي لذيذة حياة الأحياء

ـ ما زلت بعيدًا عمَّا أريد، أنت تحدثني عن رأيه بالموتى أريد أن أعرف كيف كتب شاعرك «رياد» الموت.

ـ قصدك رياض..

ـ نعم «رياد» هذا الحرف الأخير في اسمه.. أول مرة أسمع به.

ـ إنها العربية التي تعتز بلسان الضاد لا تحاول نطقه لأنه من المستحيل عليك أن تفعل ذلك.

أما ما طلبته فأعتقد أنني بتُّ أفهم عليك ما رأيك بهذه:

خنجر أبيض

في الصيف

كان ثمة صبية شقيَّة بعينين صاخبتين

إلتقت بي في قطار التاريخ

وأعطتني كتابًا و إصبعًا من الموز

بعد أن نظرت بخوف إلى الرجل الضخم

وهو يداعب فوهة مسدسه البارد في جيب سترته

وحينما طلبت منها أن تعطيني عنوانها

قالت: لا بأس

ومصت إبهامها اللذيذ وفكرت

ثم كتبت شيئًا ما على ورقة صغيرة

في الشتاء

حينما ذهبتُ إلى المقهى لأراها

كان وجهها أصفر وعيناها رماديتين

وفي ظهرها خنجر أبيض

تتراكض عليه العصافير

ـ لم أجد موتًا هنا يا هذا.. حدّثني أكثر

ـ حاضر يا سيد بيْسوّا..

أود أن أقول لك أنّه في دواوينه الأربعة، ذكر الموت والقبر 131 مرة وذّكر كلمة الحبِّ 190 مرة وكلمة القبلة 69 مرة.

ومنه أقطف لك هذا النص.

إنَّني أرقص دائمًا

وأنظر إلى الخناجر التي تغوص في اللحم

وعلى شفتيَّ ابتسامة من نوع ما

لقد تذكَّرت البارحة أغنية لطيفة

أغنية وقطيعًا من الصخور

أغنية وبحرًا هائجًا كثور

أغنية ورجلًا ميِّتًا

ينظر إلى الأفق بعينين جاحظتين

أغنية... ورقصتُ

كانت أطواري غريبة

فلم أغلق عيني الرجل بهدوء وحزن

كما يفعلون في الأفلام

لكنِّي تساءلت:

لماذا يموت الرجال هنا وهم ينظرون إلى الأفق؟

لم يحبَّني أحد

لم تحبَّني سوى أغنية وقطيع من الصخور

فمددتُ كفِّي إلى عينيَّ

ـ عينيَّ اللتين تنظران إلى الأفق ـ

و أغلقتهما بهدوء

كان يجب أن أحزن و أتألَّم

كما يفعلون في الأفلام

لكنِّي رقصت

إنَّني أرقص دائمًا

ـ آه هذا شيء جيد سأذكر شاعرك وأحاول حين أصل إلى هناك، أن أبحث عنه ـ والآن عليّ أن أتمنى لك رحلة موفقة يا فرناندو وأقول لك كما يقول شاعري الصَّغير الذي مات أيضًا في مشفى وهو دون الثامنة والعشرين:

أنت اخلع عنك الحياة واذهب بصراحة إلى الموت

الموت يا عزيزي سمكة لن تقبض عليها

إلاَّ إذا كانت يداك جافَّتين

و مشاعرك حافية

وهنا سمعت بيْسوّا يردد، مشاعرك حافية، نعم مشاعرك حافية.. مشاعرك.... وغاب كل شيء.

العابرون سريعًا بلا أسماء

هكذا أكتب، بشكل جيد أو رديء،
مصيبًا فيما يسعى إليه قولي
أو مخطئًا، أتعثر هنا، أنهض هناك،
مواصلًا طريقي، طريق أعمى عنيد

بيْسوّا

كان الوصول إلى القبر سهلًا للغاية. لم أضع له الزُّهور لأنني لم أجد محلًا قريبًا، ولكني قرأت بعضًا من القصائد الموعودة بعد أن أسندت ظهري إلى الشَّاهدة الرُّخامية. أنجزت المهمة كما يليق. وخرجت وشيء ما يمور في داخلي، امتلاء يفيض عن جسدي وعقلي. فحين يمسكك الشعر لن تنجو بسهولة من لعناته كما من بركاته.

الحرِّية: هي أن تصعب عليك نفسُك لدرجة أنّك لا تستطيع الاستمرار، فتصرخ حرية.

رياض ذكر الحريّة مرتين في خراب الدورة الدموية، وأربع مرات في أساطير يومية، وست عشرة مرة في بسيط كالماء، وخمس مرات في وعل في غابة.

أخترت منها بضع مقاطع تلوتها على القبر الأنيق.

وللحب و للحرية كنَّا نغني

نحن الحطابين الأشرار

نذهب في جهة ضيِّقةٍ

أو قنبلة سيئةٍ

نكتب أسئلة فوق ضروع الأشجار:

تعالي لنتفاءل بذات يوم فوق سرير شاسع

ذات يوم فوق سرير شاسع، حيث:

العصافير تقصف الطائرات

الشهداء يضعون القتلة على الكراسي الكهربائيَّة

الزهور تسنُّ للرصاص شفرات المقاصل

والحريَّة

تغتصب

السجون

ذات يوم فوق سرير شاسع

أفتح ثغرة في لحمك الذي يحترق أَيَّتُها الأرض

وأقذف إليك بدماري

عمَّ أتحدَّث بعد ستة و عشرين عامًا

أو بعد ست و عشرين طلقة في الفراغ؟

لقد تعبت من الكلام والديون والعمل

لكنِّي لم أتعب من الحرية

وها أنذا أحلم بشيء واحد أو أكثر قليلًا:

أن تصير الكلمة خبزًا و عنبًا

طائرًا و سريرًا

وأن ألفَّ ذراعي اليسرى حول كتفك

واليمنى حول كتف العالم

وأقول للقمر:

صَوِّرْنا!.

وأخيرًا تلك المقطوعة التي رقشها في ديوان «وعل في غابة» كنبوءة ترددت في أرجاء دمشق وسماء سوريا. بعد ثلاثين عامًا من موته.

انظروا إليه

انظروا إليه فقط

لقد تفسخ جسده

منذ زمن بعيد

وما زال يحمل راية الحرية.

خرجت من الدير الذي أصبح متحفًا وطنيًا، محتشدًا تمامًا عابرًا بخفة. أبحث عن أيِّ طاولة صغيرة لألتصق قليلًا بالأرض. أجد واحدة على الشارع العام في مقهى برازيلي، أتشبث بها وأراقب حياتي كيف تمرُّ مع العابرين. كيف يسرعون بالعبور وتتمشى ببطء.

يمرون، يتركون أثرًا ما على الطاولة المستديرة الصغيرة المستندة على ثلاثة أرجل فوق رصيف بلشبونة.

أريد أن أكون مثل هؤلاء، عابرًا دائمًا ألقي أثرًا طفيفًا لا يذكر وأمضي.

أثرًا لا يقبل لا التّأويل ولا التَّنزيل، بلا حدود، مفتوحًا على كل شيء ينتهي دائمًا إلى اللاشيء.

العابرون من حولنا هم نحن أيضًا، نمضي ويمضون ويبقى المكان يحاول تحليل الرائحة وحفظ الشذرات من الحكايات، يمنحها عادة مكرُمةً لشاعر ما، يعرف كيف ينصت إلى الحب.

الحبُّ وما هو الحب يا هذا؟.

لأن الشَّاعر قديمًا كان مُحبًّا، بالنتيجة كان خبيرًا بأقاليم الحبِّ، منظِّرًا له، كاشفًا أسراره التسعة والتسعين. يلتقط إشارته ويحوِّلها لعلامات دائمة. الحبُّ كما قال رياض :

«**الحب ليس غرفة للإيجار، ولا حبة أسبرين لصداع الوجود، ليس وردة للزينة في إناء جامدة على طاولة العادة، بل هو شهادة ولادة دائمة نحملها برأس مرفوع ونحن نجتاز شارع المذبحة**».

في مساءات لشبونة الملونة بالاصفرار الشهي لمعالجة الأرق بيرقان اللحظات المصفرة من فعل الانتظار، عليك أن تمشي بقلب عاشق تبحث عن المتادور ليصرعك أو عن ثور لتصرعه.

هنا حيث تتوحد المعرفة بالأمنيات، الحزن بأغاني الفادو، تفتح أقفاص قلبك وتطلق ثيرانها قبل أن تتلقاها قرنًا قرنًا، طعنة نجلاء إثر أخرى فتغرز رمحك في ظهر الثور.

تتحسس القسوة، وتملأ عينيك بالأصفر الذي سيتحول في ساحة الحبِّ إلى أحمر جاهزًا للنَّطح.

الحبُّ لا يختنق إنّه يتلاشى وينطفئ. صوت إيميليا يرجُّ مقاصد الكلام، ينبعث من الشُّقوق التي نمت عليها أصص ذابلة والقلوب الموشومة بدبابيس الأسئلة المستخلصة للتو من جثة ملقاة في الشارع العام.

يوخزك قلبك قليلًا، الحبُّ إله الوقت الضائع، من قال هذا؟ نضيعه مرة بالكبرياء ومرة بالغرور ومرات بالاستجداء.

لا مشكلة بالشجار في الحب، المشكلة بالصّمت؟ لا يوجد أكثر فراغًا من حب صامت يعجز أن يقول. في السفر يتجدد في قاع قلبك هاجس قديم، ذكرى عاطفة واخزة، وجه أليف يحيطك برعايته قادم من مجازر البلاد التي نادت الحبَّ فتلقفتها السكاكين.

الشاعر يلتقط يدًا ترتجف على الكرسي نسي صاحبها أن يأخذها معه، أنفًا اندس بعطر امرأة مستعجلة، مشى صاحبه مجدوعًا طوال اليوم، حلمًا ضائعًا في زحمة شارع فرعي يقتات على ذاكرة عطر مبخوخ على عجل، تحدُّق بالمارة.

العابرون سريعًا تلقاهم بلا مواعيد، لا يكلفونك حتى السلام هم أنبل ما تمنحه لك الحياة لتنتشي بوحدتك، ويتفرخ الأمل من بيوض الوقت من حولك، ويتحول إلى يرقات عليك أن ترعاها.

العابرون سريعًا يتعبون وقد يجلسون قربك، في الكراسي الفارغة قبل قليل على مساند المطارات، في الشوارع العريقة منها والغريقة بالوحل والمجدورة بالحفريات.

ليسوا مغلقين أو غرباء كما يبدو ليسوا منفتحين وسعداء كما يبدو، هم عابرون يلتقون في منتصف شيء ما. جاهزون مثلك للمشاطرة إن كنت تعرف كيف تعد بعضًا من الشطائر في حظائر السفر.

محاولة لقول لشبونة

هذه مدينة مليئة بالشوارع
شوارع مفتوحة
تؤدي إلى جميع الجهات
لكن، اسمعني، أرجوك
حياتنا مغلقة
والشارع الوحيد العادل
ذلك الذي يأخذني إلى قلبك

رياض الصالح الحسين

مدينة مقلوبة البطانة كأنها ارتدت ثوبها على عجل أو في حالة عمى، مثل التي كتبها ابنها البار سارماغو.. العمى الأبيض.

ميدان دوم بدرو في روسيو بالقرب من نافورة المسرح، وصولًا لساحة روسيو وتماثيل نسائه التي تضجُّ بالشُّرود.

وصولًا إلى ميدان ماركيز بومبال بأبهة الآباء المؤسسين، حتى تمثال الحرية «ليبيرادادو»، ثمة لشبونة حارة تحكي عن نفسها وتقولها كما الحلم والأمل، بين جبالها السبع التي تشاهقت عليها.

مرتكية بطمأنينة على كتف المحيط، غارقة في همس عميق بين حديث الموج وزفرات الجبال.

بعد هذا المرور العفيف المليء بالجهل لكل هذا التاريخ، لا بدّ من السَّكينة. فيعاود اللون الأصفر الظّهور من جديد.

مدينة تفترس الزَّائر على مهل غير عابئة بما سيقول عنها، مدينة عليك أن تكتشفها على حقيقتها. فقط اخرج من أي طريق تهندس بالنظافة في مركزها الثَّري، واصعد أحد جبالها السبع، من أي حارة جانبية لتطالعك الحقيقة. الفقر والعيون المفترسة، وأشباح بيْسوّا يجوبون الشَّوارع على مهل.

تقع لشبونة على سبع تلال في كل تلٍّ هناك حصن وقلعة وفي كل قلعة رسوخ وتاريخ، وفي هذا التاريخ يتمشى العرب القدامى في أحيائها يشربون من نهر التَّاغوس العريض الذي يربطها بالأطلسي. ألمح الجسرين اللذين يربطان جسد المدينة بأحيائها، سامقين غريبين مدهشين يتموضعان برسوخ وشموخ. أحدهما وهو الأطول في أوروبا هو جسر فاسكو ديغاما، مكتشف رأس الرَّجاء الصالح والكولونيالي الأول الذي فتح آسيا للأوروبيين.

من أعالي التّلال ستدهشك لشبونة بجمال سادر غير مسبوق، القرميد الأحمر والصنوبر شديد الاخضرار مع قطع متلألئة من فيروز المحيط، وإذا كان حظك طيبًا، بضع غيوم بيضاء ستجعل من المشاهد قطعة فريدة من جمال الوجود.

فتذكر حينها ما قاله لها بيْسوّا:

أيتها الغيمة العالية، أيتها الغيمة

لمَ تذهبين بعيدًا جدًا

إن كنت تملكين الحب الذي ينقُصُني

انزلي قليلًا، قليلًا بعد ...

في منطقة لاغو غراتشا، تتسلق برج بيليم، ستجد أحد المدافع القديمة مازال ينتظر الغزاة. صوِّب القذيفة ببارود عينيك، وأطلق في الفضاء واحدًا وعشرين آهةً احتفالًا وتكريمًا لهذا الجمال.

«بيل يم» تعني بيت لحم بالعربية، مضاف كغيره إلى الإرث العالمي لليونسكو. ومن بقايا قلعة عربية أعلى من هذه، يمكن لك أن تلمح التمثال الأصلي لريو دي جانيرو ولكن أصغر حجمًا بقليل، حيث السيد المسيح يبارك المدينة ونهرها كل يوم بعماد الزَّبد مع الحلم.

اكتبُ الآن بعد انقضاء الرِّحلة، أراجع انطباعاتي بعد كل هذا الوقت، بمزاج السّائح المبهور، وأنا أنظر إلى بلدي سوريا وهي تتحزز كبرتقالة بالساطور، تُعصر كنصف ليمونة حامضة على زنخة الموت. تتعبَّد طرقها بالجثث والصُّراخ، يُكتب تاريخها بفحم التُّراث، وتفل الرماد للجثث المتفحمة، وتغطِّس يد المؤرخ ريشتها في محبرة العدم والندم والدّم، تتمزق وتتفتق منها الحكايات والقصائد والمصائد والنزوح والشَّتات، وكل أنواع العدم، وأنا أكتب عن البرتغال!..

كيف يُكتب عن سوريا وهي تجزُّ؟ كيف تقرأ القصيدة على مسمع رجل ينحر أمام الكاميرا المخلوقة لتسجيل الحياة، فإذا بها توثِّق الموت؟.

كيف يصغي من هو مثبت بالأرض بالأرجل والأيادي المتسخة والسّكين يحزّ رقبته؟ هل تستطيع أن تحوِّل الصَّرخة إلى كلمات؟.

أنا هارب منها، أجدها في كل منعطف بلشبونة، أترك أمان المكان في المدينة.

لا يتم التسليم إلا بالتَّشليح. التسليم بالقدر هو التشليح بالقضاء، التسليم بالحاكم هو تشليح المحكوم فترفق أيها المفترق.

مدينة مقلوبة، مهمومة، مغمومة..

شيء ما حقنها بسمٍّ، بوهم، بوجع غير مرئي.. وأيضًا سرَّب بين نسوغها، التِّرياق اللازم للأرق، واللاطمأنينة والبحث المذهل عن جوهر مسترسل في الهروب. لكن الإصرار على ملامسته والتَّحديق بوجهه جعله يمنح نفسه لكاتب لشبونة الشيطاني الملائكي.

ريكاردا، أي: شكرًا بالبرتغالية، أقولها للنَّادلة البرازلية ذات الفم المتوحش والأسنان النافرة والنّيرة اللامعة كأسنان رونالدينو، على فنجان القهوة الفصيح الذي أنزلته عن طبقها الطائر.

ترد علي: أهلا مانحة إيّاي ابتسامة فاتكة.

أغمض عيني من الوهج البرتغالي، والصواعق التي يبعثها آداد إله المطر، وأفكر بالعاصفة المقيمة ليس في فمها بل هناك عند ثمار النَّحر.

هكذا إذًا في لحظة ائتلاف مدهشة، تختفي الحدود الفاصلة بين الجمال والجلال وتجلو الرؤية، لتقول لي من أنت؟ أقول لها من هو؟.

أجلس في مقهى برازليرا، هنا حيث اعتاد الشَّاعر المكوث بكامل أناقته وشرب قهوته وكحوله وتدخين لفافاته وهو يرقب الحياة التي تمشي من أمامه.

طاولته مازالت أمام المقهى، وعليها تمثال من البرونز لوضعيته الشَّهيرة جالسًا يحدق في الفراغ. يمكن لك مجالسة بيْسوّا على طاولته لتلتقط صورة تذكارية معه، وهذا ما فعلته بكل تأكيد. كم هو جميل

اصطحاب كتابه المترجم إلى العربية بقلم المهدي أخريف اللاطمأنينة إلى هذا المكان، وقراءة بعض ما خطه بيْسوّا وأنا جالس بجواره..

أنا بحجم ما أراه.. لا بحجم قامتي

بعض صور للمقهى وللتمثال الأنيق ثم سكون جليل.

تقطعه بضعة أفكار سانحة عن المدينة.

ففي المدن المثيرة لشهية الحلم مثل لشبونة، مدينة غير مكتملة مدينة يرقانية حزينة بما يكفي كي لا تغرق في أتون الألم وتصنُّع الفادو، وغامضة بما يكفي لتثير شهية فك أسرار أحجية العشق، مدينة تتلامح في أوروبا الباردة القاسية وسوريا الحارة الدَّموية.

في لشبونة الساهرة الساحرة، ستنصاع أخيرًا لفكرة تسليم نفسك إياها ومن دون شكٍّ ستحتاج إلى دليل، وخارطة، ومحفظة نقود.

لكل أحفاد الرحالة القدماء أنصح أن يكون دليلك، إن كنت سائحًا يودُّ الاختلاف، ويبحث عن شيء آخر غير تسجيل الحضور في المدن العتيقة والتقاط الصور الخاصه والتسوق الرديء، أن تعلي من شأن التجربة، وتبحث عن شاعر المدينة وقديسها ومجنونها، أن تزور بيتًا من بيوت سكَّانها، وتسمع موسيقاها، وتشرب كأسًا من عصيرها.

فإذا قدر لك أن تزور مثلي لشبونة، فليس لك سوى فيرناندو بيْسوّا.

انتهت المهمة وبحوزتي مئات الصور، الانطباعات، التَّجربة، المذاق. وفي بلدان الغربة كل الطرق تؤدي إلى المطار. لا مزيد من الأشياء سوى أنّ عينيَّ تلتقطان كل شاردة وواردة من اللون الأصفر. أرتدي كنزة صفراء اللون، حان موعد المغادرة دون عجل أحضن كاميرتي ودفتر ملاحظاتي

مثل كنز أثير في حضني. ومسٌّ من الحزن الشَّفيف والفرح الغامض ينتابني. تطفر في رأسي تلك العبارة الأخيرة التي قالها بيْسوّا يومًا وأريد أختم بها هذا الرحلة وأغادر. فإن كنت سوريًّا هذه الأيام لن يسعك سوى أن تردّد:

كلنا نهدهد في الحضن طفلًا ميتًا.

ملحق صور بيْسوّا



جدران لشبونة



في بيته الذي أضحى متحفًا



نافذة بيته



غرفته كما تركها



عازفة البيانو في بيته



محاولة للحديث مع بيْسوّا في مقهاه



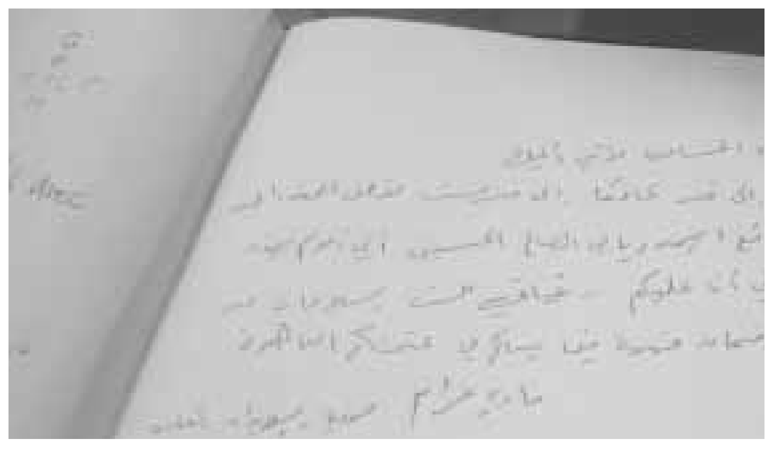
مغني الفادو



من القلعة إلى المدينة



بعد القراءة مرتكيًا على القبر



الرسالة في دفتر الزوار



بعض من لشبونة

الفصل الرابع

إن كنت سوريًّا هذه الأيام

يا سورية الجميلة السعيدة

كمدفأة في كانون

يا سورية التعيسة

كعظمة بين أسنان كلب

يا سورية القاسية

كمشرط في يد جرَّاح

نحن أبناؤك الطيِّبون

الذين أكلنا خبزك وزيتونك وسياطك

أبدًا سنقودك إلى الينابيع

أبدًا سنجفِّف دمك بأصابعنا الخضراء

ودموعك بشفاهنا اليابسة

أبدًا سنشقُّ أمامك الدروب

ولن نتركك تضيعين يا سورية

كأغنية في صحراء.

رياض الصالح الحسين

لا يمكن لي بعد أن أنهيت هذه الرحلة إلا أن أعود إلى بلدي، إلى شعراء بلدي شهداء بلدي ناس بلدي، فأنا سوري هذه الأيام. لم تعد أوروبا تمنحني الفيزا لزيارة قبور شعراءها، ولا إخوتي في بلاد العرب يريدونني بينهم، أردد ليس لدى السوري هذه الأيام سوى الريح والعاصفة.

وإن حصل يومًا وزرت قبر رياض البعيد سأنشد على مسامعه هذا النص الذي دوَّنته في يوم من أيام سنوات الدم الذي لم يعد يعرف كيف يتوقف؟.

إن كنتَ سوريًا هذه الأيام...

فأنتَ تحملُ الغطاء والكشفَ، اليقظة والمنام، الحلمَ والكابوس في زفرةٍ واحدة. تتجلّدُ بالهجير، وتذوب من برودةِ العالم.

إن كنتَ سوريًّا هذه الأيام

ستكون رمزًا للخيمة والخيبة والخوف والخيانة والخرير...

خرير الجرحِ حين يتدفَّقُ من جسدِك العاصي وعينيكَ الفرات.

إن كنتَ سوريًّا هذه الأيام

عليك أن تعود لتجلس في مدارس اللياقة، فالكلُّ يريد إعادةَ تأهيلِك، نُصحَك وإرشادَك، قولَك وقتلَك. معرفةَ صنفِك وتصنيفك، رصَّك وتشتيتِك، شدَّك والتّشديدَ عليك

يلقنونَك الدّروسَ كيف يصنعُ الله الجنان والأشياء من حكمةِ الأشلاء؟

كيف تطلبُ الضحيةُ الصَّفحَ من الجلاد؟

كيف يُحرقُ البلد باسم الولد؟

كيف تُباس اليدُ التي تقتل، والطلقةُ التي تصرع، والقذيفةُ التي تفتك

كيف تُتَّهمُ الأزهارُ بجريرة الخيانة

وكيف تجلدك عصى الفصاحةِ الثّمانين وتزيدُ كي تنطقَ الشّهادتين وتموتَ مرّتين ولا تُبعثَ أبدًا.

إن كنتَ سوريًّا هذه الأيام

سيأتي إليكَ المشفقون ليحظوا بصورة للذّاكرة المعطوبة معك، ويحتمي منك إخوتُكَ في الخليج بالمزيدِ من النَّشيج. ويُشرق دمعُ الغريبِ على طفلكَ الذَّبيح ويرسلُك بقواربَ عاريةٍ إلى مياهٍ يشتهيكَ قاعُها ويمجدُكَ الغرقُ، ويتقيأ العالم عليكَ بالمزيدِ من الخيام كي تنام... فقط تنام

وحدَها السّماء تمنحك فيزا مجانية كل لحظة، من دون حتى النظر إلى أوراقك الثّبوتية

يكفي أن تهمّ بالحديث حتى تعرّف بأنك سوريٌ من هناك، من الجحيم نفسِهِ وخصالِهِ الحميدة.

إن كنت سوريّا هذه الأيام ويسألُك أحدُهم من أيِّ البلادِ أنت؟ فقل:

إنني من هناكَ... حظي العاثرُ والخارقُ معًا جعلني أتلبَّسُ البلادَ حينَ لا مكان

أتشبث بالمكان حين تغدرني البلاد.

إنني من حيثُ سوريا نهايةٌ تليقُ بالتّاريخ، وبدايةٌ تستحقُّ أن تُعاش.

من وفرة الألم، من الدم حين ينجو من الدَّبق، من العنجهيّة التي لا تُعرف حتى الآن أسبابُها

من هناك حيث ستجدُ المرايا والضّحايا والسّبايا والهدايا تحت جسر «السيد» الرئيس.

من بلدٍ يتجدّدُ به الخروجُ إلى التّيه وعبورُ موسى وصلبُ المسيح وأوجاع محمد ومحنةُ الحلاج، وقتلُ السهروردي، ونطعُ يوحنا، وحبَلُ مريم، وانتقامُ يوشعَ بن نون، وأسرُ زنوبيا وكشفُ ثديي زينب، وتدحرُجُ رأسِ الحسين في دراما معاصرة لم تعد تحتاجُ التّاريخ.

أن تكون سوريًّا هذه الأيام

عليكَ أن تعلنَ شهادةَ وفاةِ العالم، ويعلنَ العالمُ شهادةَ شُبهتِك

فاجهر بها لتدانَ إدانةً كاملة

أنتَ المصيبةُ التي لم يَعرفْ لها الكونُ شبيهًا

أنت الضيقُ وإن اتسعْتَ

أنت المدانُ والدائنُ، أنت الدنُّ والدَّيدَن، أنت الدينُ والدنيا، أنت الدائرُ والمُندار..

وأنت اللاأحد...

أنتَ الفضيحةُ النّافرةُ في وجه هذا العصر.

أن تكون سوريًّا هذه الأيام.

ثمّةَ فخرٌ غريب يعتريكَ، لن يُدركَه الجاني والمجنيُّ والمتفرج والمهرّج وكل من لم يتلوث بسوريا.

أن تكون سوريّا هذه الأيام

فالأشياء والمواقف والاتجاهات في مداها الأقصى

فإذا أحببت تُقتل، وإذا كرهت لا تَقبل بأقل من الأشلاء

إن سكتَّ تُقتَل وإن تكلمتَ تَقتُل

تضع الضمة أو الفتحةَ على التّاء وتتسلى بتبدل مواضعها بين التائين وتتوه

وإذا أدمنْت سوريا لن يُشفيك الهروبُ منها، ولا البقاءُ فيها. إنّها ملحمةُ المكان ولُحمة الآنّين مع النّدمِ ولذّةِ الاستراق لحفيفِ الحقائق العارية أوالانصعاقِ بكهربائِها السّاكنة

إنّها الرّوايةُ التي لم يتجرأ على كتابتها «دي ساد»

ولا على كثافتها فحلُ الشِّعر العنيف

إنّها النّصُّ الموشومُ على قفا اللّوحِ المحفوظ، لا تُقرأُ إلا عقبًا على رأس.

أن تكون سوريًّا يعني أن تصارع ممالك النّحو على المضاف إليه

سوريا الأسد أو سوريا الله. لا أحد يقبلها سوريا حاف.

تحتاج أن تكسر الصَّافي من كحولها

لتحفظ مذاقَ السُكر الخفيف في مقام الخمر الشَّفيف

لتسترق المعنى من خزانة النثر

لتمارس جحودَ الوزنِ في حضرة القافية

تتهجاها سوريا وتدخلها سور.. وتنادي لمن لا حياة فيه... يا... يا...يا.

يا سور، يا سوري يا سوريا

فتجيبُكَ زخَّاتُ الرّصاص.

أن تكون سوريًّا هذه الأيام، شئت أم أبيت فأنت أكثر البشر معرفة بحقيقةِ الموت وأكثرهم جهلًا بأسرارِ الحياة.

أن تكون سوريًّا هذه الأيام

يعني أن تكونَ الشيء ونقيضَه

فكلما أصبحت شيئًا دمَّركَ ضدُّكَ الذي فيك.

أن تكون سوريًّا هذه الأيام يعني أن تكون فلسطينيًّا على مدى الدّهر

ومصريًّا حتى الفرعون الأخير، وتونسيًّا تجرّ عربة البوعزيزي في درب ابن مريم وتشتعل كل يوم، ويمنيًّا ينبض قلبك مرة لصنعاء وأخرى لعدن، وليبيًّا تحفظ وصايا عمر المختار، ومكِّيًّا تحمل روح أبي ذرّ الغفاري ومعك عصاهُ ولعنتُه، بأنه عاش وحيدًا ومات وحيدًا وسيبعث وحيدًا.

أن تكون سوريًّا

يعني أن تكون ذلك القفلُ الذي أضاعَ مفتاحَهُ وغادرَهُ الباب وفرَّ منهُ البيتُ وتعاقبُ لأنّك موصود!

لن تنجو مهما حاولتَ لن تنجو

فكيفما هربت، كيفما أنكرت أو أفصحتَ، كيفما اعتقدت أنك نجوت فإنّها تتسلَّلُ إليكَ، لتنقض عليك في غفلة منك

تعتقلك بتهمتك الأبهى «سوري» مهما ابتعدت

تأتيك سوريا، تدهشك بوقوفها ضدَّ أيِّ شيءٍ ومع أيّ شيء

يدهشك كيفَ نظامُها متشبثٌ وثورتُها باقية

كيف حاميها حراميها وكيف محرِّرُها مُستعبَدٌ فيها؟

حبرٌ كثير مهروقٌ على أبوابها

بحرٌ جديدٌ يولدُ من مِلحِها المهدورِ، من طُهرِ جرحها الفجِّ، من حريرِ ريقِها الموَّارِ بالأبجديات

من حفيف مشمشها الغاوي وهمس طلعها العالي، من مباغتة فيوض النسرين حين تحل المجزرة بمشتقات الورود، من سقسقة القبلات السرية تحت شرفات بيوتها الشحيحة

من أسماء أنهارها الحسنى

من فصاحة نداءاتها السريّة والصريحة

من بحيراتها العشر، وتلال فتنتها الألف

من خصيبها وكثيبها

من ترانيمها حين يعانق حداء الكنائس تكبير المساجد وينخرطان في نوبة نحيبٍ مجيد.

من وهجِ نارِها من دمارِها من آسِ أسرارها من عارها وفخارها، من أضرحة الأئمة ومقامات القديسين، من أولياء صبرها من سمرمر طيرها، من جرادها الأكول من نعيمها المغموس ب «القمرالدين».

من مرمر أرواح أطفالها، من طواف البهجة في سدرة منتهاها، من حمـأةٍ لا تكـادُ تجفُّ حتى تتبلَّل دمًا لم يتوقفْ عن تزكيةِ الوجودِ بروحِ الخلودِ.

من فضيحة الدهر، من تجلي القهر، من لوثة عشقٍ تتفشى على شكل قسوة بأهبّة اللَّحمِ الذي يفلُّ السّاطور، ومطرٍ حامضٍ يتقطَّرُ بلونِ البرقوق.

يا جليلة المقام وأنت تفكفكين طلاسمَ الرّيحِ بضحكات نسائِكِ الطيبات.

وأنت تُبطلين عملَ غيمةٍ مفخَّخَةٍ بالعطرِ وتنثرينها على شكلِ شاميةٍ عابرةٍ على حواف الضّوءِ، أو حلبيةٍ قادمةٍ من آخر النّهارِ أو حمصيةٍ زاخرةٍ

بكل أنواعِ الجِناسِ تنحني أمام قدميها اللغات أو ديريةٍ تحجل على جسور العبور إلى أعلى هاماتِ النّخلاتِ المُغرمةِ بالندى أو كرديّة يفيض قلبها بأغاني كاوا الحداد.

أو حموية تسيّر النواعير على نبض أشواقها، أو حورانيَّة تعدد أسماء الشهداء ببيت عتابا، وتخبز للعالم معجزة الصبر أو ساحلية خرجت للتو رقراقة من موج أرواد، أو بدوية نسيت وشوم وجهها دقَّة دقَّة، على كتف فارس من الرِّقة. أو جولانية تستغني بمن جاؤوا عمّن راحوا وتركوا أحلامهم على مناشر الغسيل، أو جبلية محبوسة بين أنين العنب وفوّاح التَّفاح.

أنا من بلدِ المليون حكايةٍ والمقال الواحد،

أنا من بلد تتحوّل جراحه إلى ضحكات، وكناياته واستعاراته وبلاغته إلى شعرٍ رديء.

أنا من بلدِ القسوة الكاملة، والحبِّ المنتهي الصلاحية، والطِّيبةِ الزَّاخرة بكل أنواع الموت الزَّاجل.

أنا من سوريا يا أخوتي، إيَّاكم أن تشفقوا عليها ففيها من الحياةِ ما يكفي لإعادةِ إعمار العالم، ومن المقابرِ ما يسعكم جميعًا.

أنا من البلدِ المعشوقةِ حتى أواخرِ النَّدم، المهجورةِ لآخر أعقابِ الشّجى

من يخاصرُها سيطلعُ على زنديهِ العشبُ!

من يراقصُها سيخاصمُهُ الثباتُ!

من يضمُّها فليتجنب الرّيحَ لأنّه سيغدو خفيفًا تطيّره الزّفرات!

من يقبِّلها ستدبُّ المحنةُ به، يحطِبُ غابةَ أيامِهِ ولا تكفُّ إبر أكوازُ الصنوبرِ عن تسيِّج أحلامه. ومن يرافقُها عليه التّخفُّفُ من الطَّريدةِ والضّحيَّة

عليه التدرب على كلِّ مشتقاتِ الموتِ وكلِّ اشتقاقاتِ الحياة وكلِّ انشقاقات ما ثبت.

فلا أحد يعرف معها هذه المهولةُ المتكبِّرةُ الجسورةُ المعشوقةُ التي تسمَّى سوريا.

بأيِّ لحظةٍ تكونُ البدايةُ أو كيف تحضرُ دفعةً واحدةً كلُّ النّهايات.

يا بلدي يا سوريا

يا بلدي يا أنتِ

أراكِ تُبطلينَ مفعول الذّاكرة، وتعدِّين لي وجبةً من ديناميت الغواية

أراك تنسَيْنَ الغناء وتكتبين الكثير من نوطاتِ الشجر

أراك تمنعين نداءاتِ السَّحيقِ من الغابرِ وتشيحين الوجهَ عن العابرِ، وتجلخين الرّائحة ـ التي غنمْتِها من بقايا الغزاة ـ على برداخ قلوب عشاقك وتحفظين لكارهيك سمومَهُم كاملة.

أراك وطنًا تأويه الشّواردُ والشّواهقُ من الطيور المنتوفةِ الرِّيشِ وآهاتٌ ساهماتٌ من النّوعِ الرّقراقِ تتطاير حولك، وعوالمُ متوحِّشة لم تستأنس بعدُ بكاميراتِ الأَفلامِ الوثائقيّة، وبحارةٌ من سفينةِ المرارة، بملحِهم الشَّهي، غنَّوا يومًا حماةَ الديار عليكم سلام، ويهزجون اليوم

جنَّة جنَّة جنَّة...

أراك تركلين المشغولين بتخصيبِ الفكرة بقصائدِ الأنابيب

أرى بما يرى المستندُ بلحيتِهِ الكثَّةِ على عانَّتك جموعًا تتدافش صوبَ

الهاوية بين منحنى إبطك ومنزلَقِ قوسِ نهدِك، على حواشي فطنتِكِ الباذخة، بالقرب من مصبِّ مياهِكِ الوفير.

ومنحنى النّظرةِ الكسيرةِ التي تحفرُ بجسدِ الفكرةِ مجاري دمعِكِ الغزير...

يا خصيبةُ يا مهيبةُ يا عجيبة يا بلدي

هزيني ودعيني استفيق فلقد نوَّمني الدم

وأعيدينا إليك سوريين أقلّ وبشرًا أكثر

سيرحل المجرمون جميعًا،

سيرحل الضاحك والمضحوكُ عليه،

سيرحل مُفشي الألم، صانعُ العدم، مروِّجُ التُهم وموزِّعُ حصَّصِ الدم على البلاد

وستقومين يا سوريا كأصبعٍ وسطى في وجه العالم

تقولين كلمةً لمن موَّتك وأماتك وأكل البقلاوة على أُجاجِ دمِكِ:

أنا البلدُ الذي لا يموت.. أنا البلدُ الذي يصعدُ شبابُه إلى سمائه راقصين

أنا البلدُ الذي لا يليقُ به الحدادُ

أنا فقط أفصِّل بصبر الأمهات، كفنَ كلِّ جلاد

وأخيرًا قبر رياض يموت هناك وما من أحد في هذا العالم يفكر أن يضعَ وردًا على قبره

علّني يومًا أستطيع.

(تمت)



ملحق صور رياض

إنا لله وإنا إليه راجعون

اتحـاد الكتـاب العــرب

والد الفقيد : صالح حسين الصالح

أشقــاؤه : حسين وحسن ونورس وهيثم ونضال وحسان واكرم وأيمن الصالح

أعمامـه : مصطفى وماهر حسين الصالح

أنسبائـه : سمير وغسان حسين الصالح وعبدالله النجار وعبدالوهاب جراح

وجميع آل حسين الصالح والنجار والجراح وليلا وفروح

ينعون اليكم بمزيد من الرضاء والتسليم لقضاء الله وقدره

بوفـاة المرحـوم الشـاب

رياض صالح الحسين

الذي توفاه الله في تمام الساعة الخامسة من مساء يوم السبت الواقع في ٤ صفر ١٤٠٣ هـ الموافق ٢٠ تشرين الثاني ١٩٨٢ م وسيشيع جثمانه من مشفى المواساة في العاشرة من صباح يوم الأحد ٢١ تشرين الثاني الى مثواه الأخير في قرية مارع قضاء حلب ٠

ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

تقبل التعازي الى أهل الفقيد شخصيا في حلب ـ كرم القاطرجي ـ جانب مدرسة الجهاد ـ دار عمه مصطفى حسين (أبو سمير)

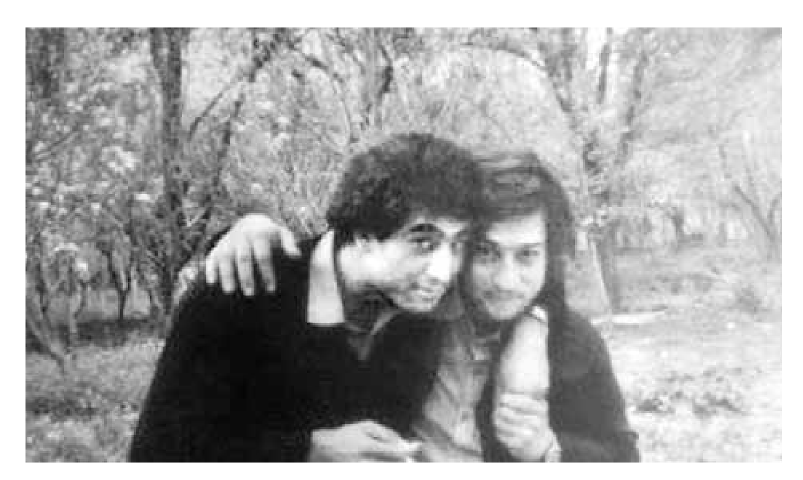
ورقة نعوته



ابتسامته مع سمر (س)



في حضرة أصدقائه



في غوطة دمشق نيسان 1982 سنة وفاته



رياض راقصًا



غلاف من تصميم يوسف عبدلكي

هادي مزام

رحلة إلى قبور ثلاثة شعراء

هل يمكن أن نكتب كتاباً في الرحلة الحديثة وحديث الثقافة واكتشاف الشعراء ومتعة القراءة ورد الجميل للكتب ونقل الذاكرة الجائزة الكتابية ومشاكسة الآراء الثابتة، والتعرف على روح الفن ومصاحبة شاعر رائع هو رياض الصالح الحسين حمل بعض ما كتب وقراءة شعره على مسامع ثلاثة شعراء ميتين هم آرثر رامبو، فرانز كافكا، فيرناندو بيسوا؟! هل يمكن أن نزور في أسبوعين ثلاث مدن شاسعة ونكتشف بعيون الشعراء بعضاً من أسرارها؟ هل يمكن أن نكتب كتاباً لا يصنف بالنثر ولا بالشعر ولا بالنقد أو المقال؟! يمكن أن يقرأه المعني بالأدب والباحث عن الاكتشاف والمحب للترحال والسفر. هذا الكتاب يحاول أن يقوم بذلك.

الناشر